

و. محمد خالدة توفيق

روايات مصرية الجيب

39

سافاري

NDIE



راحل الى هناك

www.dvd4arab.com

الذخيرة

الإعياء ..

الإعياء ..

أنت تهبط لأسفل .. الأرض تنوب من تحت قدميك كأنها تُثقب ..

شعرت بهذا في سن التاسعة عندما انقض عليك أخوك وابن عمك وصديق ثالث ، وكانوا يعزحون .. راحوا يدغدغونك بلا توقف .. أنت تضحك وتقاوم وتصرخ .. سقطت على الأرض ، فالتفوا من حولك .. تشعر بيد أخيك تدغدغ هنا ويد ابن عمك تدغدغ هناك .. أنت عاجز عن التنفس .. أنت غير قادر على التقاط أنفاسك .. غير قادر على الكلام .. تريد أن تطالبهم بالتوقف لكنهم لا يصدقون .. يتمادون ..

الذعر يستبد بك .. بقعة الظلام تكون أمام عينك .. كالخبر فوق النشاق .. تنمو .. تتسع .. تتعدد ..

توقفوا أرجوكم ! توقفوا ! أريد أن أتنف .. أن أتنفس !

هنا بدأت تدرك أن الأرض تنوب من تحت قدميك وأنت تغوص بلا توقف .. فيما بعد قالوا إنك سقطت كالبالون المثقوب بين أيديهم .. احتاجوا إلى وقت طويل حتى توقفوا وأدركوا أنك فاعل

الوعى .. أنك شاحب وأن شفتيك بنون الورق وأن الحرق البارد
يغمرك .. لابد أن قلوبهم توقفت بدورها من الهلع .. يقول أخوك
إن عشر سنوات قد اختصرت من عمره فى تلك اللحظات حتى
فتحت عينك وتكلمت ..

الآن أنت تهبط لأسفل ..

لكنك لا تشعر بالذعر ذاته ..

أخوك نفسه هنا .. يضحك لك ضحكة الفاهم لما يجرى ..

يقول لك وهو يرفع إبهامه :

- « هلم .. سترى أنها تجربة رائعة ! »

مدرس اللغة الفرنسية زميل أبوك .. أستاذ (سراج) الذى كان

يصر على أن تسميه (مسيو سراج) ، وكنت أنت تخجل من هذا

لأنه يشعرك بالتحذلق .. إنه يقف هناك .. يحمل الكتاب تحت

إبطه والعصا الفاخرة التى كان يفخر بها ، والتى لفها بالشريط

اللاصق .. يقول لك فى عصبية :

- « Plus vite .. Plus vite .. »

ويلوح بالعصا فتركض ..

ها هي ذى (مها) .. تستند على حافة النافذة عبر الشارع الضيق ، وتُنظر لك متظاهرة بأنها لا تفعل .. النافذة مفتوحة وأنت تتظاهر بأنك منهمك فى حمل الأثقال فلا تراها .. الأثقال التى هي كالعادة عصا خشبية بها ثقلان من الأسمنت .. عندما ترفع الثقل سوف تسمع عضلة ذراعك ذات الرأسين ، وترسم عليها الأوردة واضحة ، وعندها ربما تروق لها ..

وربما لا ..

ترفع صوت المذياع أكثر ليحمل لها صوت (عبد الحليم حافظ) الربيعى وهو يقول : « بحياتك يا وندى امرأة عيناها سبخان المعبود .. فمها مرسوم كالعنقود .. »

كيف يكون هناك فم كالعنقود ؟ لابد أن حبيبة (نزار قباني) هذه مرعبة أو تعاني من داء الشفة المشقوقة .. هذا عيب خلقى يمكن إصلاحه بجراحة ..

تقطب (مها) متظاهرة بأنها لاحظت أنك تعاكسها فجأة .. تحمل الكتب تحت إبطها وتُنظر لك فى حلق وتغادر غرفتها عبر الجانب الآخر .. بثياب الخروج وتحمل الكتب .. إذن هي ذاهبة إلى درس الفيزياء .. لا شك فى هذا ..

أنت تهبط لأسفل .. مقدمة قصة أنيس فى بلاد العجائب ..
عندما أردت أن تطارد الأرتب فسقطت فى بئر بلا قرار ..
الظلام ..

أين ذهب النور ؟ هناك ظلام فى كل مكان .. أنواع عدة من
الظلام .. ظلام حالك .. ظلام دامس .. ظلام مدلهم .. ظلام رمادى ..
ظلام ضعيف الشخصية .. ظلام لا يعتبر نفسه ظلاما .. ظلام
يتوهج .. ظلام فوسفورى .. ظلام مظلم .. ظلام بالمايونيز ..
ظلام بالصلصة المكسيكية مع شرائح الأسباراجس .. وفر أكثر
وخذ الكومبو مباشرة ..
تنظر لأسفل ..

يبدو أن القاع من زجاج مثل قاع مراكب البحر الأحمر .. فقط
السماك الملون هنا غريب المنظر نوعاً .. أسماك ملونة آدمية
بيضاء اللون تحتشد حول جسد .. الجسد شاخص البصر إلى
السماء ، وهامد الحركة .. إنه ينظر لك لكنه لا يراك ..

المد يضرب الشط ، والرمال الفيروزية تتناثر محاولة أن
تذوب لكنها لا تذوب .. الحمقاء لا تعرف أن الرمل لا يذوب فى
الماء .. النوارس تحلق صاخبة وتحاول أن تظفر بعينك .. ربما
تظفر برأسك كما حدث لصاحب السجن مع سيدنا (يوسف) ..

ظهور الفؤوس أكلت عيوننا .. من قال هذا ؟ (جابريل جارسيا
ماركيز) .. نحن الرجال الجوف .. قالها (أليوت) ..

فِي الْقَاعِ الزَّجَاجِيِّ مَا زَالُوا يَلْتَفُونَ حَوْلَ الْجَسَدِ .. الْجَسَدِ الَّذِي لَا يَتَحَرَّكُ .. يَتَكَلَّمُونَ .. يَصْغَبُونَ .. هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ التَّوَنُّرِ الَّذِي يُبْدُو لَكَ سَخِيفًا .. لَكِنَّكَ تَرَى وَجْهَ النَّائِمِ وَتَدْرِكُ أَنَّهُ أَنْتَ .. أَنْتَ بِأَنْذَاتٍ دُونَ سَوَاتِكَ ..

لقد فرغ ! لم يعد منه نفع ولم تعد له وظيفة ..

حَذَوْهُ .. الْقَوَاهِ فِي أَوَّلِ حَفْرَةِ تَقَابِلِكُمْ ..

أنت الآن حر ..

فقط لو لم يكن هذا الظلام .. هذا الظلام ..

الآن أنت ترتفع من جديد ..

هناك تيار يحملك لأعلى .. هذا النفق الطويل ..

الحلوة بالزبد والسكر

الظلام في جوانبه ، لكنك ترى النور عند نهايته ..

هذه الفتحة تتسرب منها إضاءة ساطعة .. إضاءة تغشى بصره

في البداية ثم تعادها فتحبها .. ضوء بهيج مفعم بالأمل ..

يجب أن أبلغه .. يجب ..

هى ذى برنادت تقف إلى جانب النفق .. تهمس لك :

- « لا تلمس الأرض بقدميك وإلا غرست فى الرمال للأبد ..
أبقى قدميك عاليتين .. أنا أحبك .. تذكر هذا ! »

تمتد يد (شينبى) إليك .. يحاول أن يعوق حركتك ..
سوف يتفلسف كثيراً جداً ويعطلك . لا وقت يا سيدى .. إننى
أقرب ..

تنفجر السدم وتنكمش النجوم .. تولد عشرات الثقوب السود ..
ومن مكان ما فى الكون تولد نجوم جديدة تتلاعب .. إنها تنهض ..
دينصور يخرج رأسه فى ثقفل من مياه مستنقع وسط السراخس ..
يحاول أن يقتنصك لكنك تراوغة ..

وفى مكان ما تسبح حيوانات الأرتيميا الدقيقة مراوغة فينقض
عليها الجمبرى ليظفر بها ، بينما ينفجر آخر الغام (دوفر)
وتتقدم القوات الغازية .. يجثو الإسكندر أمام تمثال آمون فى
واحة سيوة .. إنه نصاب يا سادة .. لا تصدقوه .. هو ما زال
بؤمن بزيوس لكنه يخدعكم لأنه يعرف أن الدين هو الطريق
الوحيد للوصول إلى قلب المصرى ..

أنت تقترب من النور ..

من فتحة النفق ..

سوف تعبر ..

شعور بالنشوة يغمرك ، لكنه كذلك توتر لذيذ .. درجة معينة
محببة من الخوف ..

لكنك سوف تعبر ..

وسوف ترى ما ينتظرك هناك ..

تعرف مصدر هذا الضوء وسره ..

ربما تذوب فيه للأبد ..

ربما لهذا جئت إلى العالم ..

ربما لهذا أنت موجود .. كي تذوب فيه فلا يصير لك
وجود ..

.. Plus vite .. Plus vite

من البطيء إلى السريع ..

لارجيتو ..

أداجيو ..

أندانتى ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

- 1 -

العاشرة مساء ..

هنا فى وحدة (سافارى) تعرف أن موعد النوم قد حان ..
 هناك صفت .. هناك سكون .. هناك إضاءة خافتة .. حتى
 الرائحة تتغير ..

إنها العاشرة مساء ..

نهاية يوم طويل من العناء والجري والعرق والمصطلحات
 اللاتينية والقىء والمalaria والإيدز ولغات الزولو والخوسا والتال ..
 نهاية يوم من الولادات المتعسرة والجروح الخطرة والكسور
 المضاعفة وأورام الثدي والقولون والحميات المجهولة .. نهاية
 يوم من المشاكل الإدارية والحسابات ..

خلية النحل توشك على أن تخلد للنوم ..

هنا فقط ينهض رجال الأمن النوبتجيون .. وردية المقيرة كما
 يطلق عليها الأمريكان .. إنهم مجموعة من الأنفاق الذين يلبسون
 الزى الرسمى الأزرق ويلقون شعار (سافارى) المميز .. كشاف
 يتدلى من الحزام وهراوة ..

هذا الذي تراه يمشى فى الممر هو (راماكيل) .. اسم من الزولو فعلاً ، ومعناه (الذى جاءنا مفاجأة) .. إنه ضخمة الجثة متشكك نشط جداً ، ترى فى عينيه نظرة كلب الصيد البقظ ، مما يخبرك أنه حتماً مستجد هنا ..

يمشى فى تودة فى الطابق السفلى وهو ينقى نظرة عبيرة على كل شىء .. على المكتب الفارغ المخصص لموظفة الاستقبال .. على الأتربة الصغيرة الأنيق .. على الهواتف المعلقة على الجدار ..

ثم يصل لذهنية الردهة حيث مصعد المرضى .. إنه يراقب الأضواء ثم يضغط على زر الاستدعاء .. يفكر فى الصعود إلى الطابق الثانى حيث زميله (موليهى) .. سوف يجوبان الطابق معاً ثم يعودان إلى غرفة لخدمة حيث يلعبان الورق ويشربان الشاي .. فقط سيقوم كل واحد منهما بجولة كل ساعتين .. هذا هو روتين الحياة ..

المصعد لا يهبط ..

هذا غريب ..

إنه متوقف فى الطابق الثالث على الأرجح ..

كان يعرف هذا جيداً .. هناك كثيرون من يلصقون ورقة على الخلية الضوئية للمصاعد كي يظل الباب مفتوحاً ، وهذا على سبيل السحابة حتى يبقى المصعد بانتظارهم إلى أن يتموا عملاً ما ..

دق على الباب المعدني عدة مرات بلا جدوى .. لا أحد يرد ..
لا داعي للصياح ..

ضغط على زر الاستدعاء بلا جدوى ..

شعر بغيب .. إن هذا الوغد قد عطل المصعد خمس دقائق
بلا طائل .. لو كانت هذه حالة طوارئ ل مات المريض وتغفن قبل أن ..
في النهاية قرر أن يصعد الدرج على قدميه ، وابتسم لفكرة أن
يجد المتسبب نفسه أمام رجل الأمن المرعب الغاضب .. الناس
تعتقد أن بوسعها عمل أي شيء بعد العاشرة مساء .. لكنهم
مخطئون ..

يصعد في الدرج .. الطابق الثاني . هل يمر على (موليهي) ؟
لا .. سوف يستغرق وقتاً إلى أن يجده ..

يصعد إلى الطابق الثالث .. ويتقدم نحو فتحة المصعد ..
هنا وقف متصلياً ..

باب المصعد يحاول ما استطاع .. ينغلق وينفتح بلا توقف
محاولاً أن يلبي النداء ، لكن لا جدوى ..

السبب هو هذا الجسد المنكفي على وجهه في فرجة الباب ..
الباب يحاول أن ينغلق لكنه يصطدم بالجسد فينفتح من جديد ..
هكذا عملية أبدية بلا جدوى ..

دنا من الجسد وهو يهاب أن يلمسه ..

يمكنه أن يدرك من هنا أن هذا رجل أبيض ضخم الجثة ،
وعلى الأرجح هو ميت .. هذا التصلب يوحي بأنه لا حياة فيه ..

هكذا تشجع أكثر ومد يديه يجز الجثة خارج فرجة الباب ،
وعلى الفور اتغلق الباب وهرع المصعد يلبي النداء .. قبل
اتغلاق الباب لمح شيئاً فى ركن المصعد .. عرفه لكن لم يستطع
تبين كنهه ولم يجد الوقت الكافى لذلك على كل حال ..

قلب الجسد على ظهره .. لماذا تصير جثث الموتى ثقيلة إلى
هذا الحد ؟ كأن كل شىء فيها يناديها إلى أن تلتحم بقلب الأرض ..
كأنها فقدت كل ما يربطها بالسماء ..

لكنه يعرف هذا الوجه ..

إنه طبيب فى الوحدة .. غالباً هو ألماتى .. وهو الآن ميت
كما هو واضح .. كما أنه لا يلبس معطفاً طبياً .. إنه يلبس الثياب
(المدنية) ..

هل توجد جروح ؟ لا .. لكن من الصعب أن يموت إنسان هنا
عند مدخل المصعد من دون أن يُقتل ..

من فعل هذا ؟ متى ؟

كان باب المصعد قد انغلق فعاد يضغط على زر الاستدعاء وقد بدأت سافاه ترتجفان لا شعورياً ..

من جديد انفتح الباب .. بالفعل هو يرى ما ظن أنه رأى ..
هناك محقن فارغ ملقى على أرضية المصعد ..

هنا كانت أعصاب رجل الأمن القوي الشجاع (ببيع) العنسانين قد انفلتت تماماً .. هو لم ير جثة في حياته ، وقد بدا له الأمر كأنه حلم وهو يقابله هنا في الليل وحده ..

استند (راماكيل) الذي جاءنا مفاجأة إلى الجدار على بعد خطوات من الميت وراح يبكي كالطفل .. يبكي .. والأسوأ أنه كلما حاول السيطرة على نفسه بكى أكثر ..

خلال نصف ساعة كانت القصة شبة مكتملة ..

رجال الشرطة الأفارقة مثلوا المكان وراحوا يلتقطون الصور ..
جاء مدير الوحدة د. (بالينجا بايلا) ونائبه د. (هاتافان بيردن) .. كلاهما منكوش الشعر منتفخ العينين كأنه بدأ النوم قبل استدعائه بلحظات ..

المتوفى هو د. (كارل شرايدر) طبيب التخدير الألماني الشاب ..
إنه في وحدة سافاري منذ عامين ..

لا أحد يعرف كيف مات ، لكن الفحص الأولى قال إنها نوبة قلبية أو ...

أو جرعة زائدة من المخدر ..
 المحقق الفارغ الملقى في المصعد يحوى بقايا سائل ما .. هناك آثار حقن في أوردة الساعد .. القصة إذن واضحة أكثر من اللازم .. هناك أمبول مورفين فارغ في جيبه .. طبيب التخدير الشاب الذى وجد في حوزته - بحكم عمله - ما يروى ظمأه إلى المخدرات .. وبالطبع يحتاج مدمن المخدرات إلى زيادة الجرعة يوماً بعد يوم .. هذا من صميم تعريف الإدمان .. حتى تأتى اللحظة التى تصبح فيها للجرعة التى تشعره بالنشوة هى بالضبط الجرعة القاتلة ..

قال رجل الشرطة الأفريقى (بيهيكيزيسا) لمدير الوحدة :

- « لا يمكن أن نعطى استنتاجات قبل تقرير الطبيب الشرعى ، لكن لا اعتقد أن تقريره سيحوى مفاجآت .. لقد تسأل الطبيب إلى المصعد ليكون فى خلوة ، وحقن نفسه بجرعة زائدة .. شعر بأنه يموت ، وغادر المصعد لكن الأجل لم يمهله وسقط هناك فى فرجة الباب .. »

لم يكن المدير مهتماً بهذا كله .. فقط كان يشعر بأن الأطباء الذين يمتنون فى المصاعد لا يلبثون بوحدة برأسها هو .. هذه فضيحة ..

إدمان مخدرات .. جرعة زائدة ! قصة قذرة بحق ولن تثبت
رائحتها أن تبلغ المركز الرئيس فى النمسا ..

أما نائبته (هانا) فكانت تشعر بدهشة .. الطبيب من الطراز
الراقى المذهب ، وهو أقرب إلى شاعر حالم .. ليس من طراز
مدمنى المخدرات ..

قال لها المدير :

- « الشعراء الحالمون يتعاطون المخدرات أكثر من سواهم ..
تذكرى (بولنير) و (إدجار آلان بو) .. هذه هى الشخصيات الإيمانية
بحق .. »

- « لكن من يموتون فى المصاعد يختلفون عن هذا .. »

- « أنا لم أر مدمنين كثيرين يموتون فى المصعد .. ربما كانوا
جميعاً من هذا الطراز .. »

كان الجدل العقيم دائراً بينما المحفة تحمل الضحية مغطاة
بالملاءات خارج الوحدة .. لن يجتاز هذا الباب ثانية للأبد .. لن
يتعاطى جرعة أخرى للأبد ..

لن يسمع ما يقال عنه ..

- 2 -

ربما بدأ الأمر كذا ..

كنت أمارس عملى فى وحدة (سافارى) كالمعتاد .. لقد عدت من (كالاهاى) مع (فاسيلى) الروسى وخطيبته (سيمونيتا) الإيطالية ، بعد تلك القصة الرهيبة التى إما أنك قرأتها فلا داعى للكلام عنها ، أو لم تقرأها فلا داعى للكلام عنها كذلك ! أذكر أننا أيام الكلية كنا نتلافى الحديث عن دروس علم الأمراض ووظائف الأعضاء أمام أحد .. فالمستمع إما طبيب وهذا يعنى أنه سيجد الكلام مملاً سخيفاً ، وإما هو ليس طبيباً ومعنى هذا أن الأمر لا يعنيه فى شىء ولن يفهم أكثره ..

كنا بحاجة إلى بعض أيام نعود فيها إلى لياقتنا ، وعامة لم نعد نتكلم عن (مارثا) أو العقارب ..

كنت مشتاقاً إلى (سافارى) الأصلية .. سافارى الكامبيرون .. الخبر المبهج هنا هو معرفتى أن اتدأبى أوشتك على الانتهاء .. سوف أعود فى الأيام القادمة ! هكذا أترك جنوب إفريقيا بما فيها من تكريت عن أونوابا والزولو والخوى خوى وصحراء كالاهاى .. أحمد الله أننى لم أصب إلا بالمalaria بين الأمراض ، وطعنات على أيدى قطاع طريق شفت منها بسرعة .. هناك قطرات من دم (أونوابا) تجرى فى دمى .. هناك ندوب فى جدار بطنى ..

أترك الناتال أرض (ماتديلا) وأكف عن استعمال الطريقة في الكلام ..

الآن وأنا على وشك الرحيل تبدو لي هذه الذكريات جميلة ..
لكني برغم هذا لن أبقى هنا ساعة أخرى .. سوف أعود إلى
(أنجاوانديري) العزيزة ، وأرى برنات من جديد .. سوف أحكي
لهم عن الناتال وعن مغامراتي مع قبائل البوشمن ، وعن الخوى
خوى .. سوف أضحك كثيرا عندما أفكر في كل هؤلاء البؤساء
الذين لم يروا ما رأيت ..

أعتقد أنني سأطلب إجازة لزيارة مصر كذلك .. سوف تأخذني
برنات معها إلى كندا .. هذا عام صاحب إذن ..

المهم أن تمر الأيام القادمة على خير ..

★ ★ ★

قالوا لي إنه حفل جميل وإنه لابد أن أكون معهم هناك ..
كانوا مجموعة من أطباء الوحدة .. أنت تعرف (سيمونيئا)
(فاسيلي) و (مكفادين) .. لقد قابلتهم كثيرا .. هناك طبيب
وطبيبة من إنجلترا .. كلهم قال لي في حماس إن الحفل رائع ..

قلت لهم في تحفظ :

- « لست راغبًا في شيء سوى أن أترك وشأني .. »

قال (مكفادين) :

- « لابد من أن تأتي معنا .. يجب أن ترى كيف يمرح الناس

هنا .. »

هكذا وافقت .. لابد من أن أوافق في النهاية ..

الحفل في دبربان ، لهذا سيكون علينا أن نركب سيارة الطبيب البريطاني (جون كارديف) .. (مكفادين) المكتنز بجواره بينما يتزاحم الباقون في المقعد الخلفي .. هذا شيء لا يطلق بالنسبة لي خاصة عندما أجد (فاسيلي) في حضني وفخذه فوق عنقي ، فهذا يدمر النطاق النفسى الذى يصنعه المرء حول ذاته ، لكن علينا أن نتحمل بعض الوقت .. المسافة ليست طويلة على كل حال برغم وعورة الطريق ..

أخيرًا تحت جناح الظلام تصل السيارة إلى ما يشبه بيتًا ريفيًا من طابق واحد تحيط به مساحة خالية من الأشجار .. نفس منظر البيوت الريفية عندما فى مصر ، حتى تتوقع أن هذا (دوار) وأن هناك غرفة مسافرين و (قاعة) ، وأن صينية الرفاق والبط ستدخل عليك فى أية لحظة ..

كان البيت مفتوحاً لكنك فى الخارج ترى مجموعة من
المشاعل المعلقة لإضفاء جو أفريقى .. النتيجة أنك تشعر بأنه
ترى حفل فودو فى فيلم رعب أمريكى ..

هناك من يقف فى الخارج فى شرفة واسعة تحيط بالبيت ،
بينما تتبعث من الداخل موسيقا أفريقية صاخبة مطورة تم مزجها
بالديسكو ..

تدخل لترى خليطاً غريباً من الأوروبيين والأفارقة يرقصون
فى صخب وجنون .. الأفارقة حرصوا على أن يلبسوا الثياب
الوطنية وبعضهم وضع ما يشبه جلد النمر على كتفيه .. هناك
عملاق أسود عارى الجذع حليق الرأس مبلى بالعرق يرقص
بلا توقف ، ويحمل زجاجة يفرغها فى جوفه طيلة الوقت .. هناك
ألف قلادة وألف وشم على صدره ..

هناك من يتواثب .. هناك من أرهقه الرقص فخرج إلى
الشرفة ليتلقى لدغات البعوض ..

الآن صرت وحدى لأن كل من كانوا حولى قد اتهمكوا فى الرقص ..
أقف فى الشرفة .. فتاة هولندية بدينة كإفراس النهر تنزى
منى حاملة كأساً .. تقدمه لى فأهز يدى وأبتسم :

- « لا أشرب .. شكراً .. »

- « سأحاول أن آتيك ببعض العصير إذن .. »

لسبب ما اعتبرت أنني ضيفها .. على قدر علمي هي ضيفة مثلى .. البيت يخص طبيباً أقريناً من الوحدة أراد الترفيه عن رفاقه فما دخلها هي في الموضوع ؟

تعود بكاس تحوى سائلاً أصفر .. ابتسم وقد تذكرت (الحاجة الأصفرة) التي يقدمها (ستيفان روستي) للفتيات في أفلامنا العربية القديمة .. هذا عصير يرتقال على كل حال ..

أشرب جرعة وأشكرها ، فتقول وهي تتأمل وجهي :

- « ابتسامتك جميلة .. وجهك صارم فيه حزن غريب ؛ لهذا تضيله هذه الابتسامة .. »

ثم فكرت قليلاً ، وقالت :

- « هل تعرف آل باتشينو في فيلم (سربيكو) ؟ هذا هو طابع وجهك باللحية .. »

آل باتشينو ؟ إذن أنا وسيم جداً .. لو عرفت هذا منذ زمن لامتلت فخراً ..

هكذا يمر الوقت وهي لا تكف عن الكلام .. لقد اعتبرت أننا ننتمي لنفس العالم ما دمنا زهرتي حائط من الذين لا يشاركون

فى صخب الحفل .. طبعاً أنا لا أجيد الرقص وهى لا تستطيعه ..
هذا هو السبب ..

تكفلت بأن جعلت أمسيتى جحيماً .. أسوأ تعذيب فى العالم هو
الشخص المصرُّ على الكلام بينما أنت مثقل بالهموم ، ترغب فى
أن تبقى صامتاً وأن تصفى لأفكارك ..

لقد ظلت تتكلم ساعة كاملة .. يبدو أنها كانت معجبة بى بحكم
الضرورة .. لا يوجد رجال آخرون لا يرقصون ..

كانت سكرتيرة فى شركة ما إن لم أكن مخطئاً .. صديقها تخلى
عنها منذ عام .. إلخ .. كلام فارغ لا ينتهى .. وأنا أبتسم ..

كان الحفل يزداد صخباً .. الخمر لعبت برعوسهم .. زجاجات ..
زجاجات .. لا أشك فى وجود مخدرات كذلك .. يزدادون خبالاً ..
العملاق الأسود يقف على أريكة ويرقص كالشيطان .. من ست
سماعات تنصاعد أغاني الزولو .. البيت يرتج .. هذا نوع من الزل
الغريب لإخراج أى كبت ، لو كان عند هؤلاء القوم أى كبت ..

عندما يعمل الغربيون تشعر بأنهم روبوتات جادة لا تتعب أبداً ،
وعندما يهزلون تشعر بأنهم السفه مجسداً .. لا يمكن أن تجد
شلة أكثر بلاهة وخرقاً من هذه التى ترقص فى الحفل الآن ..

زجاجات .. زجاجات .. كيف يشربون هذا (الهيباب) ؟ منذ طفولتى أشعر بأن من يشربون الخمر يشربون خلا .. خلا له ذات المذاق الكريه ، ولهذا ارتبط شكل الخمر عندي بالمرض .. بدواء السعال .. كأن هذا حفل مخصص لشرب أدوية السعال ..

لا أعرف متى ولا كيف انتهى هذا التعذيب ..

خرج الأطباء جميعاً وذراع كل منهم على كتف الآخر وهم يقولون بصوتٍ نشارٍ جدير بالسكارى .. لا أعرف الأغنية المشتركة بين الروسى والإيطالية والبريطانى والأسكتلندى لكنهم اخترعوها على كل حال ..

قال لى البريطانى وهو يلوح بزجاجة شبه فارغة :

- « هيا يا بنى .. لنعد قبل أن تغلق ماما عليك .. »

هكذا ودعت الفتاة فأمسكت يدي وبدأت دموعاً فى عينيها .. إنه الفراق إذن .. مسكينة .. يحزننى كثيراً نمط البدين العاجز عن التخلص من بدائنه ، والذي يشعر بتوتر عاطفى دائم بسبب هذا العيب الذى لا ذنب له فيه .. دعك من الاحتياج للحب .. كلهم مرفف الحس يحمل طاقة حب وحنان هائلة لا سبيل لتفجيرها .. ستعب كثيراً حتى تجد ذلك البدين الراضى عن نفسه متبداً الحس الذى تظهره السينما المصرية لتسخر منه ؛ لهذا - ومن دون أى دافع آخر - رفعت يدها إلى شفقتى ولثمتها .. حقاً هو تصرف أحمق لكنى فعلته ولم أندم ..

هنا تصاعدت صيحات الاستحسان الخبيثة من الأوغاد الذين
معى .. العربى الشاب المتوحد قد وجد رفيقة ..
اتجهنا إلى السيارة الواقفة فى الظلام ..

هنا قذف لى (كارديف) البريطانى بشيء فى الهواء . تلقته
فاكتشفت أنها مفاتيح السيارة !

قلت فى دهشة :

- « لماذا ؟ »

قال وهو يفتح الباب الجانبى :

- « لأنتك ستعيدنا للبيت يا بنى .. لا يمكننا القيادة بهذه الحالة .. »

وقال (فاسيلى) بلسان معوج :

- « لماذا أتيت معنا إذن ؟ نحن نعرف أنك لا تذوق الخمر »

هنا فهمت إصرار هؤلاء الأوغاد على اصطحابى للحفل ..
كانوا يعرفون أنهم سيكونون ثملين كالصراصير لدى عودتنا ؛ لذا
أصروا على أن يكون معهم أحق يعود بهم لوحدة سافارى بعد
إنهاء الحفل .. كنت سائقاً خصوصياً من دون علمى ..

لكنهم نسوا شيئاً بسيطاً :

- « أنا لا أعرف القيادة ! »

نظروا لى فى ذهول .. هذا آخر شىء خطر لهم ببال .. فعلاً
لنا لا أجيد القيادة .. أقود السيارات لكن بصعوبة بالغة وأحتاج
إلى ساعات طويلة من التمرين قبل أن تجربنى ..

هتفوا فى صوت واحد :

- « يالك من أحمق ! لماذا لم تقل هذا من البداية ؟ »

- « لأنكم لم تسألوا من البداية ! لا أحد يجيب عن أسئلة لم
تطرح ! »

من دون كلمة أخرى دار (كارديف) حول السيارة ليتخذ
مكانه خلف عجلة القيادة ..

قلت محتجاً :

- « بحالتك هذه لن تقودها أكثر من مترين قبل أن تسبب حادثاً
مروعاً .. »

- « أنت لم تترك لنا الخيار .. لن نقضى ليلتنا هنا .. »

تراحموا جميعاً داخل السيارة فلم أجد موضعاً إلا جوار السائق
هذه المرة .. وكنت أشعر بخجل شديد لأننى لا أجيد القيادة ..
لقد صار ذلك شيئاً مخجلاً فى هذا الزمن ..

هذا كلبوس على الأرجح .. كلبوس ولا أراه على أى ضوء آخر ..

الضوء الساطع يعنى عيوننا قادمة نحونا مباشرة ..

صوت البوق يتعالى ..

هذه شاحنة قادمة إلى (ديربان) عبر الطريق الضيق .. هلم

يا (كاردرف) .. تنح جانباً واجعلها تمر ..

لكن ..

أنت تندفع نحوها رأساً أيها المعتوه !!

- 3 -

كما في كل الحوادث يصعب جداً أن تصف ما حدث وما رأيت ..
 هناك ذلك الشعور العام بالضيق وعدم الاتزان .. هناك الشعور
 بأنك بلا وزن .. هناك الشعور بأنك تحلق في الهواء ..
 هناك الشعور بعدم التصديق .. هناك الظلام ..

الدكتورة (صافيناز) أستاذ الطب الشرعي تتكلم في نقطة ما
 من الزمكان (الزمكان = الزمان والمكان) .. تنظر لنا نظريتها
 الحازمة وشعرها الأشيب يتألق في ضوء النيون بقاعة الدرس ..
 تقول :

« أكثر الوفيات والإصابات في حوادث السيارات تحدث لدى
 ذلك التمس الذي يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً في
 السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

لا أعرف أين هي ولا متى . فقط أراها تكرر هذا المقطع مراراً
 بينما أطيّر في الهواء ..

ظلام .. ظلام .. أنواع عدة من الظلام .. ظلام حالك .. ظلام
 دامس .. ظلام ملهم .. ظلام رمادي .. ظلام ضعيف الشخصية ..
 ظلام لا يعتبر نفسه ظلاماً .. ظلام يتوهج .. ظلام فوسفوري ..

ظلام مظلم .. ظلام بالمايونيز .. ظلام بالصلصة المكسيكية مع
شرائح الأسباراجس .. وفر أكثر وخذ الكومبو مباشرة ..

لوحدة عن الليل هي .. هناك طفل شقى بلل فرشاة باللون
الأسود الثقيل ومشى بها على معالم اللوحة ، فصار الظلام دامسا
أكثر .. صار له سُمك ..

صار .. هه ...

أنت جربت هذا الشعور مرارا .. لا تذكر كم مرة كدت تموت
فيها ..

لكنك فى هذه المرة تشعر بأن هذه الكلمة الأخيرة .. هناك مرة
أخيرة دائما ..

منضدة باردة .. كشافات .. كشافات تعمى عينك .. وجوه
تنظر لك ..

هذه برنات .. هذه أمى .. هذا أخى .. هذه جارتي .. هذه
نسرين .. هذا شيلبي .. كلهم يقف فى ملل بانتظار انتهاء هذا
الهرء ..

مضيعة للوقت .. الاحتضار مضيعة للوقت .. لابد من الانتظار
حتى ينتهى هذا كله .. يا للملل !

أرتفع .. أرتفع ..

أنظر إلى أسفل .. كيف أرتفع بينما جسدى ما زال على المنضدة ؟
إنهم يتحلقون حوله كالذئاب .. ماذا يفعلون ؟ هل يأكلونه ؟

لا أبالى على كل حال .. هذا الجسد لم يعد يخصنى .. إنها
علبة طعام أكلت ما فيها والقيتها ..

أرتفع أكثر فأكثر ..

« أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى
ذلك التمس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً فى
السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

هناك نفق طويل مظلم أصبح فيه .. أعرف هذا النفق .. رأيت
فى أحلامى من قبل ..

أعتقد أنه عند نهاية هذا النفق سأعرف .. أعرف ماذا ؟
لا أعرف ..

فقط أتبين شخصاً ينظر لى من أعلى .. أنا أعرفه .. هذه
الهيئة مميزة ..

الرأس البيضى .. الصلعة .. النظارة .. الشارب الأسود
الرفيع ..
هذا أبى !

أبى هنا ؟ فى جنوب أفريقيا ؟ كيف جاء ومتى ؟ كنت أحسبه
قد مات .. أنا دفنته ببدى هاتين .. لكنه هنا أمامى ..
يقول لى بصوته الصارم المميز :
- « يا ولد يا علاء ! »

يا للكارثة ! هذه لهجة اللوم .. أقسم بالله أتنى لم أكسر هذه
المزهريّة .. لم أفتح الثلاجة لأكل آخر قطعة شيكولاته .. لم أقف
ساعتين فى النافذة أنتظر أن تمر (مها) ابنة الجيران للحظة ..
لم أفعل شيئا ، فلماذا اللوم ؟
- « يا ولد يا (علاء) ! »

يقولها من جديد وأنا أصبح كالمنطاد ناظرا إليه لكنى لم أبلغ
مستواه بعد ..

- « عد الآن .. إن وقتك لم يحن بعد ! »

أى وقت ؟ عمّ تتكلم يا أبى ؟

أستاذ (عبد العظيم البحراوي) .. أبى .. أفضل مدرس لغة فرنسية فى شبرا كلها .. ربما لهذا لم أتعلم الفرنسية قط .. جئت للعالم وأنا أعرفها .. ولهذا وجدت فرصتى فى أفريقيا ..

أنا أرتفع .. لقد صرت فوق مستواه ..

إنه يبتعد لكن النظرة الحازمة ما زالت فى عينيه .. وهو يراقبنى فى شك كأنه يعرف أنتى ساؤذى نفسى كالعادة ..

هذا النور الساطع فى نهاية النفق .. يشعرتنى براحة بالغة ..

سلام نفسى لا أريد أن ينتهى ..

- « أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً فى السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

صوت أزيز يتعالى لكنه ليس كريهاً .. يدغدغ الأذن حفا فتطلب المزيد منه .. من أين يأتى ؟

أنا أقترّب من هذا النور الساطع ..

بعد لحظات أعبره ..

بعد لحظات لن تكون هناك أسرار ..

سوف أعرف كل شيء ..

Plus vite .. Plus vite ..

من البطيء إلى السريع ..

لارجيتو ..

أداجيو ..

أندانتى ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

لكنى فجأة وجدت نفسى على المنضدة الباردة ..

كانوا يحيطون بى بينما الكشافات تغمى عني ..

أه ! باردة جداً .. صلبة جداً هذه المنضدة ..

أريد التنفس .. لا أريد الزحام يا حمقى !

أرى وجوها مقطبة لكنهم جميعاً يلبسون الأبيض .. وأسمع

كلاماً بالإنجليزية :

- « إنه يعود ! ضعي قناع الأكسجين ! »

شيء بلاستيكي خائق بوضع على أنفي ..

ما هذا ؟ ما كل هذه الخراطيم الخارجة من ذراعي ؟ أين أنا ؟

- « أكثر الوفيات والإصابات في حوادث السيارات تحدث لدى

ذلك التمس الذي يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً في

السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

لماذا تضايقونني ؟ لماذا منعتموني من رؤية الضوء ؟

كنت سأعرف يا حمقى .. كنت سأعرف ..

حاولت البكاء لكن ذلك القناع منعني ..

إنني ..

هذه المرة أنزلق للظلام لكن من دون نفق ولا ضوء ..

- 4 -

نعم يا د. (ماتريك) ..

لقد استعدت لياقتى تقريباً بعد الحادث ..

أعرف أن المشهد كان مروغا وأن قلبي توقف لبضع لحظات ..
لقد انقلبت السيارة ، لكن أحدا لم يصب بأذى سوى بعض
الرضوض .. أتحدث عن هؤلاء السكران طبعاً ، أما أنا فلم أكن
أضع حزام الأمان ، وقد طرت من النافذة وارتطمت بالتراب على
بعد عشرة أمتار من السيارة ..

كسور فى الضلوع .. تجمع دموى فى الصدر .. كسور فى
الساق .. لكن أهم شيء حدث لى هو أنى تزفت كثيراً جداً ، وقد
نقلوا لى عدة وحدات من الدم .. منذ جئت إلى جنوب أفريقيا وأنا
أنف وأتلقى دماً .. لقد صار هذا إيقاع حياتى ..

لقد اتصلوا بوحدة سافارى وسرعان ما جاءت سيارة الإسعاف
ننحمنى إلى المستشفى .. على الأقل كان هؤلاء المجانين يعرفون
كيف يطلبون رقماً على الهاتف الخلوى . حسببت الخمر جردتهم
من هذه القدرة ..

لا أذكر أى شيء عما كان يجرى لى يا د. (ماتريك) .. قيل إن
قلبي توقف فى غرفة الطوارئ ، وإنهم أجروا عملية إفاقة قلبية

رنوية CPR لى ، وحقتوا قلبى بالأدريينالين .. بعد هذا قاموا
بإعادة جهازى الدورى إلى حالته ، وقاموا بتثبيت الكسور ..

الحقيقة أننى تحولت إلى دمية هشمها طفل شقى ، واليوم فقط
يمكن أن أعتبر نفسى نجوت تمامًا ..

سوف أتخلص من هذين العكازين قريبًا جدًا .. انتزعوا ذلك
الأنبوب اللعين من بين ضلوعى ، واليوم رأيت وجهى فى المرآة
فعرفت أن الجروح لم تترك ندوبًا واضحة ..

هذا هو مصير من يركب سيارة يقودها بريطانى سكران ..
أعرف أن الخمر ضارة جدًا لكن على شاربها ، فما ذنبى أنا الذى
لم أنق قطرة واحدة فى حياتى ؟

نعم يا د . (ماندريك) ..

فى الحقيقة لا أعرف سبب اهتمامك بقصتى ، ولا سبب نسجك
لكل حرف أقوله ..

أعرف أنك طبيب نفسانى وأن هذا جزء من عملك ، لكن ما
قلته لك هو كل شيء .. أنت مهتم بشدة بهذه الروى التى رأيها
وقت توقف قلبى ..

ما أستطيع قوله هو إننى عبرت إلى عالم الموت وعدت ..
الانطباع العام الذى غمرنى هو الشعور براحة عظيمة .. رأيت
تكثير من وجود أحيائى الأحياء منهم والأموات .. لكن هاجس
النور فى نهاية النفق ظل يسيطر على ..

بصراحة أقول إنها كانت تجربة محببة .. لا ألم ولا خوف ..
شعور هو أقرب للنشوة ، ولم يبدأ الألم فعلاً إلا عندما عدت لعالم
الواقع ورأيت ما حل بجسدى ..

لا ياد. (ماتريك) .. لا أتعاطى أى نوع من المخدرات .. لم
أجربها فى حياتى ولا أريد ..

بصراحة لو تكررت هذه التجربة فأنا راغب فى ذلك .. أرغب
فى أن أجرب شعور الطفو هذا من جديد ، وأن أرى نفسى من
الخارج .. لكن لا حوادث من فضلك .. صحتى لن تتحمل المزيد
من الحوادث فى هذا البلد ..

أنت أمريكى وبالتأكيد تفتقد وطنك هنا كما أفتقد وطنى .. ثمة
شئ ما لا يناسبنى فى هذا البلد برغم جماله .. ربما كان أول
لقاء لى فى أفريقيا مع الكاميرون لهذا اعتبرتها بيتى بشكل
لو بأخر .. على الأقل زوجتى هناك ، وأنا أحب زوجتى بحق ..

نعم .. رأيتها في ذلك الحلم الغريب ، لكن أهم شخص قابلته هو أبى - ليرحمه الله - الذى توفى منذ عشرة أعوام تقريبا .. كان يحتفظ بذلك الطابع الحازم المميز له ، وكان يقول لى لى موعدى لم يحن بعد ..

بصراحة أعتقد أن تجربتى تتعلق بالأرواح .. لا أرى تفسيراً آخر .. روحى غادرت جسدى واستطعت أن أراه على المنضدة والأطباء يحيطون به ، لكن أجلى لم يحن بعد لذا عدت .. سوف أتأمل هذه التجربة طويلاً وسوف أكتب عنها ..

لكن فيما بعد .. فيما بعد .. مؤقتاً أنا راغب فى أن استعيد صحتى وأن أمشى من دون عكازين ..

الآن أرجو أن تتركنى فأننا فعلاً مرهق من الكلام راغب فى النوم ..

ربما نواصل الكلام فى الأيام القادمة ..

- 5 -

بدأت أستعيد قواى بسرعة ..

كنت أهاب الإصابات بشدة لأن الملل هو أكثر شىء يخيفنى ..
نصور أن ترغم (علاء عبد العظيم) كثير الحركة القلق كالذبابه
على أن يبقى فى الفراش أياماً وشهوراً ..

الحمد لله أن الوضع لم يكن بهذا السوء .. كنت أقضى يومى
فى الفراش بين مشاهدة التلفزيون والنوم وقراءة كتاب
(إيسلانتشر) الكابومسى أو قراءة شىء مما لوالتر سكوت .. كل
قصصه التاريخية ممتة تناسب من يحتاج إلى زاد لا ينتهى من
الصفحات ، أو يريد أن يغفو حيث هو ..

لكنى كنت أخرج كثيراً جداً معتمداً على العكازين ، فأهبط إلى
الحديقة الخلفية للوحدة بعيداً عن زحام المرضى فى الحديقة
الأمامية .. هناك المكان خال صامت يذكرك بالمصحات النفسية ..

أمشى على العكازين فى تودة وأخيف الفراش الذى يحلق هنا
وهناك ، ثم يغلبتنى الإرهاق فأجلس أتأمل حوض الأزهار هذا أو
ذاك .. أبحث عن أطلب منه كوباً من القهوة فلا أجد .. الكل هنا
مشغول يركض ويعرق فلا مكان لمرضى مدلل .. أنت بخير
بابنى ولن تموت هذه المرة .. إذن لا تعطلنا ..

من حين لآخر يأتى لى (فاسيلى) وخطيبته ليخبرانى أنهما
أسفان وأنهما أحققان .. أو يأتى الطبيب البريطانى المخبول
(كارديف) ليعيد لى شرح الحادث ويبرهن على أنه لم يكن بملك
الخيار :

- « اسمع .. هذه هى سيارتى .. »

ويضع قطعة من الطوب على الأرض ..

- « وهذه هى السيارة الأخرى .. »

ويضع علبة مياه غازية فارغة فى المواجهة على الأرض ..

- « هكذا .. هى تدنو منا بسرعة .. نحن على خط واحد ..

لا يوجد حل سوى أن أنحرف بالسيارة بأقصى سرعة .. عندما
تنحرف وأنت منطلق بسرعة ستين ميلاً فمن الصعب أن نظل
السيارة على عجلاتها الأربع .. هنا تنقلب .. من طالعك السبيل
أن .. »

أقول له فى نفاذ صبر :

- « صدقتى .. لم أعد أذكر ولا أهتم .. »

- « لا دور للسكر هنا .. أى شخص كان سيفعل الشيء ذاته ..

المخطئ الوحيد هو سائق الشاحنة .. »

ثم ينظر إلى ساعته ويعلن أن وقت الاصراف قد حان ..

- « هل تريد أى شىء ؟ »

- « أريد أن أبقى وحدى .. »

ولى هذا ..

كنت امرُ بتجربة غريبة أريد أن أستكملها وحدى ..
المكان المناسب لاستكمال هذه التجارب هو أن تكون وحدك
فى حديقة غناء ، بينما الكل مشغول ولا أحد يتابعك .. فقط أنت
تسمع الصخب من الجهة الأخرى للوحدة ..

هذا الصخب يلعب دور الخلفية لخواطرِكَ ..

الحلم الغريب الذى مررت به عندما توقف قلبى .. هل هو
الموت فعلاً ؟

كانت أمى تقول لى إن المحتضر يرى شريطاً كاملاً يستعرض
أعماله طيلة حياته .. لكنى لم أر هذا الشريط .. فقط رأيت النور
الساطع .. لو كانت أمى هنا لقالت لى إن هذا النور يدل على
نفس إنسان خير فى طريقه إلى الجنة .. لكنى لا أعتقد أن الأمر
بهذه السهولة ولا أن الجنة قريبة لهذا الحد منى ..

لكن التجربة هزنتى من دون شك ..

ما زلت أذكر كل التفاصيل ، وبالتأكيد أنا راغب فى استغلالها
من دون إصابات ..

النفق ..

النور الساطع فى نهايته ..

صوت الأريز ..

كل هذا بدا حقيقياً بطريقة لا يمكن وصفها ..

والآن أشعر بأن الحياة تستحق نظرة أخرى .. نحن نركض
ونركض فلا نجد لحظة واحدة نجلس فيها وننظر لأنفسنا .. كان
الحياة زميلتك فى العمل .. أنت وهى مشغولان للأبد غارقان فى
توترات العمل ومشاجراته .. فجأة تتوقف وترفع رأسك .. تنظر لها ..
فجأة تدرك أنها جميلة بحق وأنت تتمنى لو كان هذا السحر لك ..

هناك تفسير لكل هذا لكنى لا أستطيع أن أمسك به ..

ذات الحيرة التى شعرت بها وأنا أشعر بأن وجودنا كله ثقب كبير ..

تضع قدمك على أول درجة من سلم عال شامخ . لكنك عاجز

عن استكمال الصعود ..

هنا يظهر د. (ماندريك) ..

يظهر بالمعنى الحرفى للكلمة .. أراه قادمًا من نهاية العمر بين أحواض الأزهار وهو يدس يديه فى جيبيه .. برغم ضخامة جسمه المرعبة فهو مهذب هادئ ، يلبس (بول أوفر) خاكي اللون له فتحة على شكل رقم (سبعة) تطل منها ياقة قميصه وربطة العنق الكاروهات .. عوينات خفيفة بلا إطار ورأس نصف أصلع .. لحية خفيفة بنية اللون ..

د. (جوزيف ماندريك) الأمريكى جاء إلى الوحدة قبل قدومى بشيرين ، وهو طبيب نفسى من (منيسوتا) . لا أسرة له هنا فى جنوب أفريقيا ولا فى الولايات على قدر علمى .. لم تتعقد بيننا صداقة من أى نوع ، كما أنه رجل صموت أميل للتحفظ .. ربما مات فلا يعرف أحد ذلك ..

لكن (ماندريك) ظهر فى حياتى بقوة منذ أفقت من ذلك الحادث .. فى البداية قال إنه يدرس (توتر ما بعد الحوادث) وإنه يريد أن يسمع منى ولا يعلق ، ثم بعد فترة اعترف بأنه مهتم بما رأيته وعشتة فى اللحظات التى توقفت قلبى فيها ..

- « كيف حالك يا دكتور ؟ »

- « بخير يا سيدى .. واضح أنني بخير .. »

جلس جوارى على المقعد الخشبي الطويل ، وإن تفادى فضك
الطيور المبعثرة عليه ..

سالتى وهو ينزع عويناته ليجفف العرق عليها :

- « هل ستعود إلى الكامبيرون قريباً ؟ »

- « بمجرد أن أتعافى .. نعم .. »

- « أنت سعيد الحظ .. أنا لم أر غرب أفريقيا قط .. »

- « هذه مزية أن تكون قابلاً للاستغناء عنك .. هم يتخلصون منى
فى أى مكان .. مرة فى كينيا ومرة فى الناتال .. ربما أكون فى
الكونغو المرة القادمة .. لو كنت مهماً أساوى ثقلنى ذهباً لبقيت
حيث أنا للأبد .. »

ضحك طويلاً ثم فعل الشيء الذى اعتدته كلما قابلته ..

أخرج جهاز التسجيل ووضعه بيننا .. ثم ضغط على الزر الأحمر ..

قلت له فى حرج :

- « أنت لطيف ومهذب ، لكن موضوع تسجيل ما تقول هذا يفكرنى
بالمباحث الفيدرالية أو جلسات محامى الشركات .. بالصراحة لا أتمنى
براحة وهذا الشيء يراقب أنفاسى .. لاحظ أننى لم أوقع للتطوع
فى بحث علمى ما ، ولم أعطك تصريحاً بتسجيل ما أقول .. »

قال فى حرج مماثل :

- « أسف .. افترضت أن هذا لن يضايقك .. »

لكنه ترك الجهاز يدور مما أثار غيظي ..

قال لى :

- « أنت وصفت كل ما رأيت .. لا أعرف إن كنت تدرك أهمية

ما نقول أم لا ، لكنك شئت أو أبيت صرت حالة أخرى من حالات

NDE .. »

بدالى الاسم مألوفاً فكررتة :

- « NDE ؟ وما هو ؟ »

- « أى Near death experiment .. تجربة الدنو من الموت ! »

- 6 -

في الأيام التالية جلست كثيراً جداً مع د (ماتريك) ، وعرفت منه الكثير عن تفاصيل هذه التجربة العجيبة التي مرت بها .. إنها ليست فريدة على الإطلاق .. كثيرون مروا بها .. ربما الملايين ..

فقط ظهر عالم درس هذه التجارب اسمه (ريمون مودي Raymond Moody) ، قضى من عمره 19 عاماً في دراسة الظاهرة حتى صار الخبير الدولي الأول في هذا الموضوع ، وهو يرى أن هذه التجارب قد حلت السؤال الأبدى الذي عذب البشر : ماذا يوجد هناك ؟ (مودي) طبيب نفسي كتب عام 1975 كتاباً مهماً عن الظاهرة اسمه (الحياة بعد الموت) ، وقد باع هذا الكتاب عشرة ملايين نسخة .. يبدو أنه بالغ في وصف المباح التي تنتظر من يموتون ، حتى إنه خشي أن يغري كتابه المخالفين بالانتحار .. هكذا كتب كتاباً ثانياً اسمه (أضواء جديدة على الحياة بعد الحياة) تكلم فيه عن الانتحار ، وكيف أن تجربة الدنو من الموت تجعل المرء يتمسك بالحياة أكثر ..

(ريمون مودي) هو الذي اصطك مصطلح NDE ولو كان عالماً عربياً لصار اسم التجربة (ت د م) .. هذا المصطلح دخل الثقافة الشعبية الغربية بشكل غير مسبوق ، وصارت هناك مجلات طبية رصينة مختصة بأبحاث الدنو من الموت ..

إن التجربة كما يلي :

فى 12% من المرضى الذين يمرون بحالة توقف للقلب ثم عودتهم للحياة ، تكون هناك هذه الذكرى المبهمة عن الخروج من الجسد .. هناك صوت الأريز .. هناك ذلك الشعور العام بالسرور والسلام .. هناك النفق الطويل المظلم .. دائما النفق الذى يوجد الضوء فى آخره .. ضوء ساطع يعنى العيون .. النطق .. ثم يعود المريض للحياة فيمر بنزعة صوفية .. يشعر بحقيقة العالم الآخر والاقتراب من خالقه ..

هناك لمسة أخرى من تجربة تدعى (الخروج من الجسد) ، وهى التجارب التى يرتفع فيها المريض فى سماء الحجرة ويتمكن من رؤية جسده من الخارج .. يراه وقد ألنف حوله الأطباء وربما الأقارب لباكون ..

غير أن التجربة ليست بهيجة فى كل الأحوال .. هناك من حكوا عن ظلام وعمليات تعذيب على أيدي شياطين أو أقزام ..

بين من مر بهذه التجارب من المشاهير نجمة هوليوود (إليزابيث تايلور) التى مرت بهذه التجربة عام 1961 عندما توقف قلبها نتيجة التهاب رئوى .. (شيللا) المطربة الفرنسية مرت بهذه التجربة ..

يرى المتدينون أن هذا هو الدليل على وجود جنة ونار .. هؤلاء الذين رأوا النار كانوا مؤمنين ، هؤلاء الذين عذبهم الأقرام كانوا خطاة ..

تكونت مؤسسة اسمها (أيلاندس LANDS) لدراسة ظواهر الدنو من الموت ، وقد أنشأت لها فرعاً في فرنسا تحت رئاسة (لويس توماس) .. وقد وجد الباحثون فيها القالى لدى العائدين من الموت :

● 58 % يشعرون بالسلام النفسى والهدوء .

● 37 % يعيشون تجربة الخروج من الجسد .

● 23 % يدخلون النفق المظلم الشهير .

● 17 % يرون الضوء الباهر .

● 10 % يذوبون في هذا النور الباهر .

كثير ممن يمرون بالتجربة يلقون أقارب ومعارف لهم ملوا من قبل .. ثم يشعرون بأنهم يجتازون حداً ما ، ثم تأتى لحظة العودة لعالم الواقع .. غالباً ما تكون مصحوبة برفض ونفور ..

يمكن القول إنتى مررت بكل شيء ! عندما أذهب إلى مدينة الملاهى لابد أن أجرب الألعاب كلها ولا أقنع بلعبة أو لعبتين !

أفرضنى (ماندريك) كتاب (مودى) المسمى (الحياة بعد الموت) كى أقرأه .. وقد أمضيت وقتاً طويلاً معه ؛ لأننى كنت أطلع كل فقرة مرة تلو المرة ..

بالنسبة لى لا توجد مشكلة ، فأنا أعرف ما سيحدث لى بعد الموت يقيناً من الدين .. لو رفضت هذا لكنت كمن يرفض الدين بالضرورة ، لكن الجديد بالنسبة لى هو أن يتمكن المرء من الاقتراب إلى هذا الحد والعودة .. أن تلقى نظرة وأنت تقف على أطراف أصابعك ثم تعود جرياً قبل أن تنغلق البوابة عليك ..

هل هذا ممكن ؟

لو كان ممكناً لكنت تجربة فى غاية الإثارة .. أما لو لم يكن فلا مشكلة .. إن عدم صحة تجربة NDE لا علاقة له بالبرهنة على وجود حياة بعد الموت فى رأى .. سطح الجيران موجود سواء كان بوسعك أن تزحف فوق سطح دارك لتلقى نظرة عليه أم لا .. فشك فى استراق نظرة لا يدل على شيء ..

كان أهم سؤال وجهته لـ (ماندريك) هو :

« لا شك فى أن روح الإنسان واحدة .. فما السبب فى أننا معشر العرب لا نسمع الكثير من هذه القصص ؟ ربما نسمع عن

الشخص الذي يرى شريط حياته ، أو يرى أشخاصاً ميتين
لكننى مثلاً العربى الوحيد الذى رأى النفق على قدر علمى ..

ابن سيم ، وقال ما معناه :

- « من غير زعل ؟ »

- « طبعاً .. »

قال :

- « السبب هو تقدم الطب فى العالم الغربى .. تقدم وسائل
إعادة الحياة للقلوب المتوقفة .. هكذا يعود أناس كثيرون يوماً
بعد يوم من على الحافة الرهيبة ، ويحكون ما رأوا .. من ثم يد
لم يحك شيئاً ومات بسرره .. اعتقد أنكم تفقدون الكثيرين من
توقفت قلوبهم .. »

بدا لى التفسير منطقياً .. ليس دقيقاً تماماً لكنه منطقى ..

كنت متحمساً وقد جلست لأكتب خطاباً طويلاً لبرنات لرس
بالبريد الإلكتروني .. انتقيت عباراتى بدقة حتى لا يصيبها لذر
أنا مت لكن ليس إلى هذا الحد .. هلكت لكنى لم أهلك جداً
تمزقت لكن ليس كما تظنين ..

فقط خصصت عدة صفحات أحكى لها فيها تفاصيل هذا الذى
رأيت ..

كما توقعت لم تنتظر البريد الإلكتروني وإنما اتصلت بى معربة
عن ذعرها وقلقها ..

- « أنت مجنون .. لن تكف عن محاولة قتل نفسك ! »
قلت لها كالأمريكيين :

- « الجنون .. هذا هو اسمى الأوسط .. »
كنت أشعر برضا وسرور لا حد له .. هى قلقة على .. هى
توت ذعرا .. كم أن هذا جميل !

فأنت بعد ما انتهت من السباب الفرنسى الرقيق :

- « لى عمة مرت بتجربة كهذه .. إنها تحدث للكثيرين ..
لبعض يعتبرها هراء ناجما عن نقص الأكسجين الواصل للمخ ..
لبعض يعتبرها تجربة دينية مثيرة .. »

ثم ودعنى مع وعد بأن أحافظ على حياتى إلى أن نلتقى ..

- « عدنى أنك لن تموت قبل أن .. قبل أن أموت أنا .. »

الحقيقة أننى لم أف بالوعد تماما .. وستعرف السبب حالا ..

- 7 -

مزاجى يهبط ..

حالتى المعنوية تتدهور ..

أعتقد أنتى أعانى اكتئاباً شديداً هذه الأيام ..

لم أعد للعمل بعد وربما كان هذا سبباً مهماً ، لكنى بالفعل غر
راغب فى العمل .. غير راغب فى الاستيقاظ صباحاً .. غير
راغب فى العودة للوطن ..

غير راغب فى الحياة ..

فقط أمضى الساعات فى الحديقة الخلفية أتأمل الفراش والأزهار .. أحاول أن أفهم جدوى ما تقوم به .. منظر رائع سام
جدير بأفلام (ديزنى) لكنى لا أرى فيه إلا السخف بعينه .. ثمة
شئ من الادعاء هنا .. الحديقة تعتقد أن عليها أن تكون جميلة.
وبما أنها تعرف أن الحقائق الجميلة تعج بالأزهار والفراش،
فإنها تفتعل ذلك من دون أصالة ..

أتأمل المرضى فى اشمنزاز .. ماذا يريدون ؟ لماذا يعتقدون
أن عليهم أن يشفوا ؟ ما أهمية حياتهم ؟ هذه المرأة التى تعيش
فيما يشبه الدغل تجرع الفقر والمرض .. لماذا تعتقد أن عليها

إن تشفى من أمراضها ؟ لماذا لا تموت ؟ ماذا تركت لآينشتاين
وفيرمي وابن سينا ؟ هؤلاء هم العلماء الذين يستحقون أن
يعلجوا ويشفوا ..

هكذا رحت أنحدر من حالة نفسية سيئة إلى أسوأ .. لولا
نفسى لأقدمت على الانتحار ملأً ، وهو أغرب تصرف يمكن أن
أفكر فيه أنا بالذات ..

كنت غارقاً فى هذه الهموم عندما قابلت د. (ماتريك) فقلت له
أنا راغب فى أن يكتب لى دواء للاكتئاب ..

ضحك كمن يتوقع هذا ، وقال لى :

- « إن أنت فى الطور إياه ؟ »

- « أى طور ؟ »

- « طور الاكتئاب .. لابد بعد المرور بتجربة NDE من فترة
لطيفة وبهجة ، ثم يبدأ الاكتئاب .. »

- « والحل ؟ »

- « سوف أصف لك بعض مضادات الاكتئاب ، لكن أقول لك
أن هذا ناتج عن سحر التجربة وغرابتها .. أنت رأيت بصيصاً
من هناك .. تريد أن تعود .. »

- « لابد من توقف قلبي ثانية ، لهذا تجدني غير متحضر للعودة .. »

هكذا كتب لي بعض أدوية الاكتئاب من صيدلية الوحدة ، وأمر بصرفها ..

وبدأت أتعاطى تلك الأدوية والتصقت بحياتي بشكل لا يصلح لكني بدأت كذلك أعتقد أنها هراء .. نوع من العجين الأبيض المجفف .. هؤلاء الناس يمزحون ولا شك ..
أخبرته بذلك ففكر حيناً ..

ثم عاد لي بعد يومين .. كانت عيناه تلمعان بشكل غريب ..
قال لي :

- « هل أنت مستعد لمغادرة الوحدة بضع ساعات مساء اليوم ؟ »
نظرت إلى ساقى والعكاز الذى أحمله وهزرت رأسى :
- « ربما .. نعم .. »

- « جميل .. سوف تأتي سيارة لك اليوم فى التاسعة مساء .. »
- « والغرض ؟ »

قال فى مكر .. وهو يضع إصبعه أمام شفته :

- « نوع من جلسات العلاج الجماعى .. تعال وجرب .. بعدها
نكلم .. »

★ ★ ★

فى التاسعة مساء وفقت مستنذا إلى العكاز على باب وحدة
سافارى الرئيس أنتظر .. أرمى الطريق الترابى الذى يقود
للوحة .. لم أر طريقاً ممهداً أمام أية وحدة (سافارى) عرفتها
لحياتى ويبدو أن هذا جزء من تقاليد المهنة ..

رأيت سيارة (لاند روفر) بيضاء تدنو منى وهى تضيء
كشافاتها بشكل متقطع .. دنوت منها واتحنت على زجاج النافذة
الأمامى فرأيت رجلاً أفريقياً فى الأربعين من عمره يضغط على
نافذة تبغ بين أسنانه ، ويسألنى :

- « واضح أنك د. (عبد العظيم) .. »

- « أنا هو .. وأنت من طرف ... »

- « نعم . د. (ماتريك) .. اركب من فضلك »

الجو كله يوحى بالتآمر .. لن أندش لو كانت كلمة السر هى
(لن مر الفيل الأخضر من هنا ؟)

ركبت جواره وأنا أساءل عن هذا البرنامج الذى يبدأ بتلك
الطريقة ..

هذه أول سيرة أركيها منذ وقع الحادث .. أشعر بتهيب ورهبة خاصة مع الليل .. لن أندش لو تكرر كل شيء بالحرف ..

لكن الرجل كان سائقاً مسالماً محترفاً ، وقد قدرت أننا ذاهبان إلى (ديربان) .. بالفعل كان الأمر كذلك ، حتى أننا قطعنا ذلك الطريق الذى قطعناه فى تلك الليلة المشنومة .. فقط لم يتم ذلك البيت المكون من طابق واحد ، وإنما قصد بناية من طابقين أمامها حديقة صغيرة مهمة .. ودعائى للرجل ..

وعلى الباب وجدت د. (ماتريك) بجسده العلق العميق .. وكان بادی المرح ..

قلت له ، وأنا أدوس على العكاز بحرص :

- « اسمع .. لو لم يتضح أنها مهمة تجسس أو حلقة لعبادة الشيطان ، لظننت أننى أحمق ! »

قال ، وهو يساعدننى على اجتياز مدخل البناية :

- « لا تقلق .. هى مهمة مخالفة للقانون فعلاً ، لكنها لا تتعلق بالتجسس ولا عبادة الشيطان .. ربما نبداً فى شرب دم الأطفال الرضع بعد قليل لكن ليس الليلة .. »

صعدنا بصعوبة عبر درج ضيق إلى شقة فى الطابق الأول .. أول علوى كما نقول عندنا .. ودق الباب مرتين ..

الشقة كانت خالية من الأثاث تقريباً .. جدران مدهونة حديثاً ..
 مفاعد متناثرة .. سرير كشف طبي جوار الجدار .. لا يوجد
 شيء آخر .. مزيج غريب من عيادة طبية وشقة تحت التأسيس
 وكر عصابات و (غرزة) لتعاطي المخدرات .. لن أندesh لو
 ظهر نومرجى يحمل (جركن) بلاستيك ملاء بالماكستون فورت
 ومحقناً .. ثمة ستار أخضر سميك يبدو أنه يفصل جزءاً من
 الشقة عن الجزء الذى نجلس فيه ..

هناك الكثير من أقذاح القهوة الفارغة متناثرة على الأرض .. فى
 كل قذح أو فى طبقة دققت عشرات الأعقاب من لفائف التبغ .. رائحة
 لجوتل على أن هذه الشقة لا تستخدم للعلاج من إدمان السجائر ..
 كانت المجموعة الجالسة تتكون من شابة غربية .. ثلاثة
 رجال غربيين .. شابين من الأفارقة ..

كانوا ينظرون لى دون دهشة أو فضول .. فقط ينظرون ..

فل لهم (مالدريك) :

- « هذا صديقى العربى .. د. (عبد العظيم) .. قليقدم كل
 منكم نفسه من فضلكم لأننى مرهق .. »

هكذا بدأ كل واحد يقدم نفسه :

- « (مارى ماكلويد) .. صحفية .. »

- « (جيروم ستوارت) .. طبيب .. »

- « (كارل شتاينبرج) .. صحفي .. »

- « (جيرار شيفالبيه) .. مدرس لاهوت ومبشر .. »

- « (بيكيسيسا) .. معلم في مدرسة ابتدائية .. »

- « (أكبر موندهارات) .. حارس مصرف .. »

طبعاً تبانيت اللهجات وإن كانوا جميعاً استخدموا الإنجليزية ..
يمكن القول إن لدينا بريطانيين وفرنسيين أو بلجيكيين وألمانيين ولقريباً
من الزولو وهندياً .. الأسعر الأخير لم يكن أفريقياً إذن ..

ما الرابط بين هؤلاء ؟ مهنة الصحفي تتكرر مرتين ، وهنا
المدرس تتكرر مرتين إذا اعتبرنا أن المبشر مدرس بشكل أو آخر ..
الآن صار هناك ثلاثة أطباء .. هل تستنتج من هذا شيئاً ؟

نظر لي (ماندريك) بعينيه اللتين تشعان ذكاء ، وقال :

- « أعرف ما تفكر فيه .. لقد أجبتنا عن السؤال الأول (من

هؤلاء ؟) وبقي السؤال الثاني (ما الرابط بينهم ؟) »

ثم أشار لهم ، وقال بلهجة مسرحية :

- « كل هؤلاء عادوا من الموت مثلك ! »

- 8 -

قال (حيروم ستيوارت) :

- « كنت أرى جسدى من أعلى وقد التف حوله المسعفون ..
كنت أرتفع وأرتفع .. لكنى لم أكن مسرورا أو منتشيا .. كنت
ألمح بأن هناك شيئا خطأ وأن أوان تصحيحه قد فات .. لن
أستطيع العودة لهذا الجسد ثانية .. سوف أرتفع إلى أن أخترق
سلك الحجرة ثم أغيب فى عالم غريب مخيف .. »

قالت (مارى ماكلويد) :

- « أنا كذلك كنت خائفة موشكة على البكاء . »

قال (جيرار شيفالييه) بلكنته الفرنسية الشنيعة :

- « بالنسبة لى شعرت بنشوة وتمنيت ألا تنتهى هذه اللحظات »

صب (مائريك) بعض العصير لنفسه وأشعل لفافة تبغ ، وقال :

- « كثيرون ممن يملكون بالتجربة لا يملكون بتجربة الخروج

من الجسد .. هما غالبا متزامتان لكنهما لا يعنيان الشئ ذاته ..
أحيانا تكون هذه التجربة ممتعة شبه صوفية ، وأحيانا ما تكون
مخيفة .. »

كنت أنظر للساعة .. إنها الحادية عشرة ليلاً .. سألته :

- « ما زلت لا أعرف الكثير عن تجربة الخروج من الجسد هذه .. »

- « نسميها اختصاراً بـ OBE .. أى Out of body experiment .. وهى كما قلت لك غير ثابتة فى حالات الدنو من الموت .. لث مررت بها .. إنها تتضمن الشعور بأنك تطفو فى الهواء .. ترى نفسك من الخارج .. وهى تنتهى بالعودة للجسد ودخوله .. »

تذكرت فيلم رسوم متحركة مجرياً قديماً كان المتوفى فيه على المحفة .. تصعد روحه للسماء ببطء فيشدها أحد الأطباء من ساقها ليعيدها إلى الجسد .. تكرر هذا عدة مرات فاضطر الطبيب إلى تقييد المريض لمنع روحه من الخروج !! ..

تذكرت هذا وابتسمت برغى ..

قال د. (ماتدريك) وهو يتساءل فى سره : (لماذا يتسم هذا المخبول ؟) .

- « على كل حال هناك الكثير من الجدل حول ظواهر الخروج من الجسد هذه .. السويسرى (أولاف بلاك Olaf Blanke) حصل على نتائج مشابهة عن طريق تنبيه الفص الجدارى

لصدغى فى المخ .. يمسسه بالقطب الكهربائى فيجد المريض نفسه يحلق فى فضاء الغرفة ويرى جسده .. عالم آخر هو (برزنجر Persinger) جرب وضع الأقطاب المغناطيسية على الفص الأيمن لدى المرضى .. وقد ظفر باستجابة مماثلة .. ليس هذا فحسب .. هناك من يجد نفسه يحلق فى الهواء عندما يجرب النوم دون فقدان الوعي .. هناك نوم من غير نوم كالذى يمارسه لحراس الليليون .. أنت نائم لكنك متيقظ كذلك .. هذا يجعلك نحلق لترى جسدك من الخارج .. أعنى أنك ترى ما تتصور أنه جسدك .. كل ما ينشط موجة (ثيتا) فى المخ يسبب رؤيا مثله ، وقد اخترعت مؤسسة (مونرو) جهازا ذا سماعتين لسمعه (هيمى سنك) Hemi - Sync تضعه على رأسك فتسمع لنبضات معينة تغرقك فى التأمل والاسترخاء .. بهذا يمكنك أن ترى كل شيء .. هناك عقارات كثيرة تحدث هذه الحالة .. كل ما يؤدى إلى حرمان حسى يمنعك من استقبال ما تقدمه لك لحواس ، يقوم العقل وقتها بتأليف مدخلات حواس جديدة .. أى لك تشم بلا أنف وتسمع من غير أذنين ، وتلمس من غير لئل ، وتذوق من غير لسان ، وتسمع بلا أذنين .. ليس هذا مبعأ أو غريبا .. تذكر أن هناك حالة مماثلة تمر بها كل ليلة ولنت نائم .. هذه الحالة اسمها (الحلم) .. »

انتهت المحاضرة ، فسألته بوضوح :

- « إذن أنت لا تعرف بتجارب الخروج من الجسد .. »

قال في حزم :

ب - « لا أعرف .. فقط قلت إن هناك طرقاً كثيرة جداً لإحداثها ..
إن ألعاب المخ معقدة .. أنا كذلك لا أنكرها .. إن هناك من مرر
بها ووصفوا أموراً رأوها في الغرف المجاورة . أموراً لا يمكن
أن تصفها ما لم ترها من أعلى .. لكن .. لنقل إن هذا ليس
موضوع اهتمامي .. »

- « نفس الشيء ينطبق على تجارب الدنو من الموت ؟ »

هز رأسه نافية :

- « لا .. لا يمكن تفسير الظاهرة كلها على أساس نفس
أو كيميائي .. هناك تجربة غريبة مررتم بها ، وأنا ميل إلى أنها
ذات طابع ميتافيزيقي .. أنتم اقتربتم فعلاً من العالم الآخر ..
دخلتم إلى المعبد المقدس حيث سر الأسرار الذي حير البشرية ،
ثم عدتم .. »

سألته ، وأنا أنظر إلى الجالسين :

- « أنت إذن تجمعنا كما يجمع غيرك الطوايع أو بطاقات البريد ..
ما سبب هذا الاهتمام الغريب ؟ »

قال بلهجة ذات معنى :

- « أنا نفسى مررت بتجربة مماثلة .. والآن صار همى أن
أعرف .. أن أفهم ما رأيناه حقًا .. ما رآه كل منكم .. لهذا
أجمعكم هنا .. ودعنى أؤكد لك إن هذه هى ليست المرة الأولى
لتنى تلتقى فيها هذه المجموعة .. فقط هى أول مرة لك .. إن
الأمر يتعلق بناد فريد من نوعه .. نادى العالدين من الموت ،
لذين ما زالت التجربة تهزهم .. ربما بالحيرة .. ربما بمذاق
دبنى .. ربما بالرغبة فى أن يروا هذه الأحداث ثانية .. المهم
لنا جميعًا نلتقى هنا .. »

كنت قد بدأت أفهم ..

ارتجفت لفكرة ونظرت إلى الجالسين حولى ، فخمنت أننى
على الأرجح على حق ..

عيونهم المتسعة ونظراتهم لى قالت الحقيقة ..

رفعت رأسى ، وبصوت مبحوح سألت :

- « هل تكرر التجربة هنا ؟ »

قال من دون أن يبعد عينيه عني :

- « نعم .. »

- « وعلى من ينضم لهذه الجماعة أن يقبل هذا ؟ »

- « قد لا يقبله على نفسه .. أنت حر .. لكن يقبله بالنسبة

للآخرين .. »

- « وهذا يعني ؟ »

- « يعني أن ما تراه هنا سيظل سرًا .. لهذا نحن لسنا في

سافاري .. أنا أجرى هذه التجارب على مسئوليتي الخاصة،

لكنك تلاحظ أننا ثلاثة أطباء الآن .. »

ثم نهض في تودة وأزاح ذلك الستار الأخضر الذي حيرني ..

حركة مسرحية ، لكنها أظهرت لي سرير فحص ومراقبا على

كومود جوار السرير ، والكومود عليه مفرش طويل ينتف من

حوله .. هناك نازع استقطاب Defibrillator .. بالنسبة لمن

ليسوا أطباء هنا أقول لهم إنه ذلك الجهاز الذي يثبتون أقطابه

على القلب صانحين : إخلاء ! ثم يوجهون صدمة كهربية لقلب

المريض المتوقف .. أنتم ترونه في السينما بكثرة ..

هناك محاقن .. هناك زجاجات أدوية .. هناك قناع أكسجين ..
هناك كاميرا فيديو مثبتة على حامل ..
قال (ماتريك) :

« اعتقد ان الدور على شتاينبرج »

لنصة واضحة تماما ..

...

...

...

...

- 9 -

عارى الجذع على السرير يرقد (كارل شتاينبرج) الصطر
الألماني ، بينما نقف حوله ..

الحقيقة أن المشهد غريب يوحى بأننا نقف خاشعين لـ
لحظة احتضاره .. في الوقت ذاته تشعر بأنك في غاية مركزا
في مستشفى ، لكن أية مستشفى تلك بهذه الجدران المتهاة
والمصباح الواهن المعلق من السقف ؟ خليط غريب من المشاعر
والأماكن والأجواء حتى تحسب أنك تحلم ..

يثبت (ماتريك) أقطاب تخطيط القلب الكهربى بينما (شتاينبرج)
يحاول أن يبدو مرخا .. على قدر علمى هذا رجل يتأهب للموت
وإن كان يأمل فى أن يعود منه .

ملت عليه ، وسألته :

- « لماذا تفعل ذلك ؟ »

قال ، وهو يتحسس معصمه :

- « لأننى أريد أن أرى تلك اللحظات مرة أخرى .. أريد أن
أعرف .. كأنه فيلم سينمائى لم تتابعه فى ظروف جيدة
مرة ، هكذا تتمنى أن تدخله ثانية . مباراة فاتك هدفها الوحيد
هكذا تجلس للإعادة متنبه الحواس مرهفها .. »

وملأ لو لم تعد ؟ لم أسأله هذا السؤال طبعاً لكنى تعנית لو
فك ..

لماذا وقفنا فى خشوع ننتظر . بينما أولج الطبيب البريطانى
لحقن فى عروقه .. كان قد ثبت قناة وريدية تحسباً لما قد
يحدث ، ثم بدأ فى حقن مادة مخدرة ..

لا أعرف إن كان هذا المنطق يناقض نفسه أم لا .. هكذا لن
يكون هناك وعى .. إذن ما قيمة التجربة ؟

على كل حال ارتخى جفنا الرجل وهدأت حركته ، عندها جاءت
للحظة الخطرة ..

حمل (ماتريك) أقطاب جهاز نازع الاستقطاب ثم أعلن لنا :
.. إخلاء ..

وألقى الأقطاب الرهيبية بصدر (شتاينبرج) ثم دوى صوت
لصمة كهربية .. شلاك ! بوم ! انتفض الجسد بتلك الطريقة
لسيرة الشفقة ، ثم همد ..

وعلى شاشة المراقب تحولت الضربات المنتظمة إلى خط
مستقيم مخيف يوحى بالموت ..

لك توقف القلب !

هنا استعمل الجهاز بالعكس .. بدلاً من توجيه صدمة كهربية
لقلب متوقف كي يعمل ، تم توجيه صدمة لقلب يعمل جيداً ..
هكذا تحولت ضرباته إلى خط ...

إنه الآن على حافة الأبدية ..

★ ★ ★

عينا (ماندريك) القلقتان تراقبان عقرب الثواني ..
العرق يحتشد على جبينه .. ينتظر بعض الوقت ..
تتبادل النظرات في توتر .. رائحة الأورينالين التي تشمها الوحوش
بسهولة ، ويبدو أننا صرنا قادرين على شمها بدورنا ..
يهمس البريطاني (جيروم ستيوارت) في قلبي :

- « هلم .. لقد حان الوقت .. »

لو تأخر أكثر من اللازم لتأذى المخ من نقص الأكسجين ..
معنى هذا الموت - في أحسن حالات - العته أو العمى أو الشلل ..
ياخذ (ماندريك) نفساً عميقاً ويفرغ شيئاً في القناة الوريدية ،
ثم ينظر إلى شاشة المراقب حيث يرسم الخط الطويل للمنزل
بالنهاية .. يقول لنا وهو يمسك بالقطاب ..

« إخلاء » .

هذه هي طريقة (فرانكنشتاين) فى الرواية الشهيرة .. طريقة
فى الساعة المتوقفة لتعمل .. نفس الشيء يتم هنا بشكل عملى ..
لفرانكنشتاين استخدم الكهرباء لهذه الساعة .. البرق بالتحديد ..
نفس الشيء يتكرر هنا كذلك .

من جديد يلصق الأقطاب بالصدر . ثم شلاك ! بوم ! ينتفض
لجسد بتلك الطريقة المثيرة للشفقة ، وفى هذه المرة نرى على
لشاشة أن مسيرة الجمال قد بدأت .. القلب عاد يدق ..

تنفس الصعداء .. بينما يثبت (ماندريك) القناع على وجهه
لعريض ..

الأخير يسعل .. يحاول النهوض ..

فى النهاية بدأ يهدأ وتنفسه ينتظم ..

أخيراً فتح عينه ونظر لنا نظرة زائغة ، وهتف :

- « كم الوقت الآن ؟ هه ؟ كم الساعة ؟ هه ؟ »

فل البريطاني فى برود :

- « أنت غبت عن الوعي دقيقتين ! »

- « حسبت أنني هناك منذ أيام ! »

هذا معتاد على كل حال ، ومن الواضح أن الإحساس بالزمن هو أول ما نفقده عندما نفقد الوعي .. أو أن الزمن نسبي فعلاً .. ربما كان زمنه هو الصحيح وكانت ساعاتنا خادعة ..

هناك الزمن الذي غايه عن الوعي فعلاً وهو دقيقتان ، هناك الزمن الذي استغرقته تجربته وهو في رأيه أيام .. هناك الزمن بالنسبة لنا ونحن نراقب التجربة ، وهو عدة قرون !

صاح وهو يبكي بدموع حارة غزيرة :

.. « أنا كنت هناك ! لقد رأيت النفق ! »

- 10 -

بأنفعل رأى النفق ..

حتى لنا هذا كله وهو يستجمع قواه ..

كانت القصة مألوفة .. الظلام .. الأريز .. الطيران .. النفق ..
لنا ذاتم تسجيله وهو يحكيه .. وقد استغرق ربع ساعة فى هذا
لرد الذى بدا لى مألوفاً .. وقد قال لى (ماتدريك) بعدها :

- « هذا حظ حسن .. لا يمر كل من يجتازون هذه التجربة
إن اللحظات .. أحياناً لا يحدث شيء .. »

قلت له من دون حماس :

- « جميل .. لكن كلامه معتاد أكثر من اللازم .. كلام أسمعته
كثراً .. »

- « ماذا تريد قوله ؟ »

قلت فى حذر :

- « ما دور تأثير قصص العاندين من الموت على من يحكون
هذه التجارب فيما بعد ؟ أنت تعرف أن الطبيعة تقلد الفنان .. »

- « أوسكار وايلد Wilde .. »

- « نعم .. من هنا سوف يعود المرء من تجربة توقف القلب ليحكى لك ذات الأشياء .. هو لم ير شيئاً لكنه تخيل أنه رأى ما قرأ عنه آلاف المرات .. هناك من قال إن السكرى يرون أفيالاً وردية ، وهكذا صار واجباً قومياً على أى سكير أن يرى أفيالاً وردية .. »

نظر لى مفكراً ، وقال ما معناه (وجهة نظر) ، ثم أضاف :

- « أنت رأيت التجربة .. هل لك خبرة بها من قبل ؟ »

- « لا .. »

- « هل قرأت عنها الكثير ؟ »

- « بصراحة .. لا .. قرأت القليل أو لا شيء .. »

- « إذن من أين رأيت ما رأيت ؟ من أين جاءت الأفيال

الوردية ؟ »

- « لا أعرف .. »

- « إذن من الوارد أن السكرى يرون أفيالاً وردية ، ومن

الوارد أن من تتوقف قلوبهم يجتازون نفقاً .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وقال :

- « الواحدة صباحاً .. أعتقد أن علينا أن نعود إلى سفارى ..
سوف نوصلنا السيارة مغاً .. »

ثم صاح فى الجالسين وفى الرجل الراقد على سرير الفحص
والذى صار قادراً على الجلوس :

- « سوف نعود يا شباب .. موعدنا الخميس القادم ! أرجو
أن تتأكدوا من د. علاء حصل على أرقام هواتفكم وطريقة
الاتصال بكم والعكس .. إن التواصل مهم جداً هنا ، ونحن نرغب
فى أن تكون العلاقات البشرية مستمرة .. »

ثم أشار إلى الفتاة البريطانية :

- « دورك هو القادم يا (مارى) .. هل أنت موافقة ؟ »

هزت رأسها فى مزيج من النفور والشفغ .. هى تريد ولا تريد ،
وتشعر بكليهما بشدة .. الطفل الذى يشتهى ركوب القطار الأفغوانى
لكن كل عضلة فى جسده تأبى ذلك .. لماذا تقبل ذلك ؟ لأنها تريد
أن تعيش التجربة من جديد وتتحقق مما فاتها .. نفس ما قاله
الأماتى .. لأن هناك نوعاً من الإدمان فى هذا الذى حدث ..

ثم إن (ماتدريك) قال للبريطانى وهو يشير إلى (شتاينبرج) :

- « هو لن ينصرف إلا فى الصباح .. لن نطمئن على رحيله .
سوف نقضى معه الليلة كما اعتدنا .. »

هز البريطانى رأسه موافقا ..

بعد دقائق كنت فى السيارة جوار (ماندريك) بينما السائق
الأفريقى ينهب الطريق المظلمة عائدا لوحدة (سافارى) ..

جاء يوم الخميس ليجد السيارة تنتظرنى ..

نفس الرحلة الغربية فى الظلام إلى ذلك البيت فى (ديربان) ..

عندما صعدت هذه المرة لم تكن هناك أسئلة .. لقد صرت
أعرف الباقيين جيدا وصاروا يعرفوننى ، وثمة علاقة ما من
المودة نشأت بيننا .. نحن متفاهمون تماما .. كنا جرب هذه
التجربة الغربية ولم يعد محتاجا إلى الشرح .. الناس بالخارج لن
يفهمونا لكننا نفهم بعضنا جيدا ..

أشار (ماندريك) إلى تلك الفتاة (مارى ماكلويد) فنهضت
لتأخذ دورها . كانت متوترة ومعها الحق لكن شيئا من الشك
كان يميز سلوكها .. كانت تلبس بلوزة خفيفة فكان من السهل
أن تلتصق الأقطاب من تحت الثياب ، ثم تدثرت بالملاءة جيدا
ونامت على سرير الكشف ..

جثا البريطانى - الذى أنسى اسمه باستمرار - جوارها وحققها
فى القناة الوريدية ، ثم انتظرنا حتى أغضت عينيها ..

جاء دور الصدمة الكهربائية للقلب .. أدخل (مائريك) يده
تحت الملاءة وصاح بنا :

.. إخلاء !

شلاك بوم !!

تنفض الجسد .. وبدأت رحلتها ..

جيروم ستيوارت .. اسمه جيروم ستيوارت .. الآن أتذكر ..

من جديد ننظر لعقارب الساعة .. من جديد نحبس أنفاسنا .

نم أعرف من قبل شيئا يمكن مقارنته باللعب بالنار مثل هذا ..
أن ترسل شخصا إلى حافة الموت ثم تحاول أن تعيده ..

عقرب الثواني يتحرك .. يتحرك .

ثم يصيح البريطاني أن الوقت قد حان ..

يفرغ المحقق في ذراعها ، ثم يضع الإقطاب ويأمرنا بالإخلاء ..

بوم !

لكن القلب لا يستجيب ..

ما زالت نبضاته ترسم - أو لا ترسم - ذلك الخط المسطح الممتد
على شاشة المرقاب !

- 11 -

كان في منيسوتا في ذلك الوقت ..

منذ عشر سنوات .. الطبيب النفساني الشاب (جوزيف ماندريك) .. ضخم الجثة رقيق الطباع كطفل ..

الوالد متوفى ، وهو يقيم مع أمه .. العجوز الأمريكية الراقية ذات العوينات والشعر الأبيض كالثلج .. صغيرة القد جدًا حتى ليندهش الناس من كونها رزقت بطفل بهذا الحجم ..

أم رقيقة أمريكية جدًا ، لكنها عرفت بالفعل كيف تسيطر على كل مفاتيح حياته .. أناملها تتغلغل في كل شيء ..

لم يعرف فتاة إلا وتفحصتها في عناية ثم تخلصت منها (لأنها رقيقة أو بلهاء) .. كل صديق يدعو له لداره كان يخضع للفحص دقيق ينتهي لطرده غالبًا ..

أم أمريكية رقيقة ، لكنه كان في قبضتها ..

بحكم عمله كطبيب نفسي قرأ الكثير عن السفاح الأمريكي (إد جين) ، وأثار ذهوله أن سبب كونه سفاحًا هو ارتباطه الشديد بأمه .. لقد مرضت المرأة ففقدت أي قدرة له على مواجهة العلم ، ثم توفيت فلم يستطع أن يسمح لها بأن تدفن .. فيما بعد صار

سفاخا يسلخ جنود ضحاياها ليصنع منها عباءة واسعة يلبسها
 أمام المرأة فتشعره بأن أمه موجودة ! هذا السفاخ هو الذى
 أوحى لروبرت بلوخ Bloch بقصة فيلم (سايكو) فيما بعد ، وهو
 الذى أوحى بسفاخ فيلم (صمت الحملان) ..

بالطبع لم يبلغ (ماتريك) هذه الدرجة من الحماس ، لكنه
 كان يقرأ هذه القصص ويرتجف من الخراب النفسى الذى يمكن
 أن تسببه سيطرة الأم أكثر من اللازم ..

فى مجتمع مثل أمريكا يصير من الطبيعى أن يهجر الفتى
 البيت فى التاسعة عشرة أو أقل ، لكن فكرة كهذه لم تخطر ببال
 (ماتريك) قط .. لقد ظل يعيش فى البيت حتى الثلاثين .. لم
 يتزوج ولم يعرف أية فتاة ..

فى البداية كان يروق للفتيات باعتباره (الفتى الضخم الوسيم) ،
 ثم كن يتعرفن به أكثر فيشعرن بأنه ابن أمه بالمعنى الحرفى
 للكلمة .. هكذا يهربن ما لم تقم أمه بدور طردهن ..

هذه هى النشأة الغربية التى نشأها (ماتريك) والتى زادها سوءاً
 ما درسه فى علم النفس .. عندما يصير المريض النفسى طبيئاً
 نفسياً فإن حالته تتفاقم .. لن يعالج نفسه كما فعل فرويد ..

هكذا فى سن الثلاثين قرر (ماتريك) أن يتمرد ..

كانت أمه واقفة في المطبخ تعد الحساء الذي يحبه ..

دخل إليها وهو يحمل حقيبتَه فنظرت له بدهشة ..

قال لها :

- « أماه .. لنجعل هذا سهلاً .. أنا راحل ! »

السيدة صغيرة الحجم الرقيقة تنظر له في ذهول :

- « راحل ؟ إلى أين ؟ »

- « لا أدري .. لا أعرف من أين أبداً لكنني سأجرب حيتي

بعيداً .. »

- « أنت مجنون .. لن تستطيع أن تعيش وحدك يوماً واحداً .. »

- « ربما أعيش يومين .. ساري ... »

واستدار مبتعداً .. يا لك من جاحد أحمق ! أنا التي أقف كل هذا

الوقت أعد لك الحساء الذي تحبه ! أنت مجرد طفل . طفل يبول

على نفسه ويبلل سراويله ولا بد من تبديل حفاضته .. لو اعتقدت

للحظة أنك ستعيش يوماً آخر وحدك فأنت ساذج ..

تقف تراقبه من على باب المطبخ الخلفي وهو يبتعد بحقيبته

وسط أحبال الغسيل ..

تصبح بأعلى صوتها :

- « أراهن أنك نسيت الجوارب ! أراهن أنك نسيت آلة الحلاقة ! »

الحقيقة أنه تذكر الآن أنه لم يأخذ معه الجوارب ، لكن
لا مشكلة .. سوف يجرب شراءها بنفسه .. لم لا ؟ لن يقتله
البيع أو تسخر منه البائعات ..

تصبح :

- « كل هذا من أجل الفتيات أيها المانع المنحل ! »

الفتيات الشقراوات المانععات اللاتي لا تعرف الواحدة منهن
كيف تقف ساكنة ربع دقيقة .. الفتيات اللاتي يلبسن الشورت
والبلوزات القصيرة .. الفتيات اللاتي يدمرن الرجال الضخام
لذج مثل ابنها ..

نكن صوتها يخفت وهو يبتعد ..

يبتعد ..

يبتعد ..

(إريك بالمر) أخبرها ..

هذا مؤكد ..

لقد أقام عند صديق عمره (إريك بالمر) الذى كان قد طلق زوجته منذ زمن . انتزع وعدا من صديقه ألا يخبر أمه بمكانه .. سوف تتصل .. أنا أعرف هذا ..

ينظر له (إريك) بوجهه الخمول البدين ، ويسأله :

- « إذن .. أنت مختبئ من أمك ؟ »

- « نعم .. »

- « هذه السيدة الرقيقة الضليعة ؟ ولت فى حجم (كينج كونج) لو

أصيب بالتعلق ؟ »

- « نعم .. »

ينظر له (إريك) من جديد فى دهشة ويكتم خواطره ..

لقد مرت الأيام ، وهو لا يذهب لعمله منذ فترة .. فقط يضع الخطط كى يذهب إلى أفريقيا ليعمل فى تلك الوحدة الغامضة المدعوة (سافارى) .. مراسلات مع (واشنطنجتون) ومع المركز الرئيس فى النمسا ..

عندما دق جرس الهاتف ..

كان وحده فى الشقة ، ولم يعرف ما يجب أن يفعله .. لقد اعتاد ألا يرد على المكالمات .. لكن فى هذه المرة شعر بشيء أقوى منه يدفعه إلى رفع السماعة ..
وضع السماعة على أذنه وظل صامتاً ..

هذا صوتها .. صوتها الواهن المبحوح :
- « هاللو .. »

ظل صامتاً وقلبه يوشك على الخروج من ضلوعه .. ما كل هذا الجبن ؟ كل هذا الذعر ؟ لم ير هذا الهلع من قبل إلا لدى بطلات أفلام الرعب الوحيدات اللاتى يتصل بهن السفاح ..
جاء صوتها من جديد :

- « جو .. أهذا أنت ؟ »

لم يرد ..
- « جو .. »

كان يعرف أنه لو رد لتكلمت . وعندها ينتهى كل شيء ..
سوف يحزم حقيبتيه ويعود للبيت كما كان .. لن يقدر على
المقاومة ..

هكذا وضع السماعة ..

فى اليوم التالى جاء (إريك بالمر) يبلغه بالخبر .. أنه قد مات !

لا يعرف أحد ما حدث .. فقط كانت هناك فى المطبخ على الأرض وفى يدها سماعة الهاتف .. يعتقد رجال الشرطة أنها شعرت بمبادئ نوبة قلبية فطلبت رقمًا ما لينقذها .. لم تطلب 911 بل طلبت رقمًا ما

رقمًا ما ..

وفى الأيام التالية زارته مرارًا فى المنام .. كانت تنظر له فى صمت وتبتسم .. نفس ابتسامتها عندما شمت رائحة التبغ فى غرفته لأول مرة وهو مراهق ..

كان يتوقع أن يصاب بشلل هستيرى أو يجن لكن شيئًا من هذا لم يحدث . تكفل الدفاع فى عقله الباطن بمحو الصورة .. صورة السيدة الضليعة المسنة ملقاة على أرض المطبخ وتطلب ابنها .. تكلمه فى رفق كى لا تتغير ذعره .. لكنها تعرف أنها تموت ..

هذه الصورة قد انمحت من خياله .. بالطبع يجب أن يحدث

ذلك وإلا جن ..

وجها الرقيق يطارده أثناء النوم .. يطارده في كل خطوة ..
يطارده في الطائرة . يطارده في جنوب أفريقيا ..

ثم حدث الحادث الشهير عندما كان بيدل أحد المصاييح في
شفته في ديربان ..

لقد صعفته الكهرباء وتوقف قلبه بعض الوقت ..
ثم استطاعوا أن يعيدوه ..

ما أثار جنونه هو أنه لم ير أي شيء .. لم يحدث له أي
شيء في لحظات توقف القلب تلك .. لقد كان ناعسا ثقيلًا
بلا أحلام عاد منه .. لم يتذكر أي شيء ولم يرو أي شيء ..
أصابه الجنون وخيبة الأمل ..

لظننا توقع في لحظات كهذه أن يرى أمه .. كلهم يفعل هذا ..
لأنهم يراها في تلك اللحظات فمتى ؟ سوف يجثو أمامها ويطلب
المحبة ، وسوف تفهم وتبتسم ..

عندها تزول الرؤى وتكف عن زيارته في منامه ..

كذا ظل يتابع باهتمام كل ما قرأه أو سمعه عن ظاهرة الـ NDE
ورسل (ريمون مودي) عدة مرات .. كلما سمع عن شخص مر
بهذه التجربة ورأى أحبائه شعر نحوه بحسد عظيم ..

هذا كان مشروع عمر (مائريك) ..
لقد قام بتكوين ناد صغير يضم هؤلاء الذين مروا بهذه الخبرة ..
الذين اقتربوا من الموت وعادوا .. من هنا يبدأ البحث ويعرف
ما هو أكثر عن تلك الظاهرة ..

يجب أن يقننها ..

يجب أن يفهمها ..

يجب أن يرى أمه ولو لحظة واحدة ..

- 20 -

هذه المرة أولج إبرة (الأدرينالين) بين الضلوع وشعر بعضلة
القلب تعرض الإبرة .. أولج الإبرة وحقن ..

بينما كان الطبيب البريطاني يوجه ضربات للصدر ..

نظر لى الألمانى فى عصبية ، وقال :

- « وانت ؟ لماذا لا تساعد ؟ »

هذا صحيح .. هناك ثلاثة أطباء فلماذا يعمل اثنان فقط ؟

كان هناك جهاز (أمبو) الخاص بالتنفس الصناعى فوضعت
العاز جانباً ، وجلست على مقعد وأوشكت على البدء ، لكن
(مادريك) صاح مغضباً :

- « أنت تزيد متاعبنا هنا .. اجلس من فضلك ! »

كم مر من الوقت الثمين ؟؟ كم بقى ؟ هل تأخرنا أكثر من
اللازم ؟

- « هلم .. استجيبى أيتها الحسنة .. استجيبى ! »

فجأة بدأ المرقاب يصدر صوتاً .. نظرنا غير مصدقين فرأينا
نوجات ترسم عليه من جديد .. لقد عاد القلب ينبض ..

فَتَحَت عَيْنَيْهَا وَالْقَتَاعَ عَلَى أَنْفِهَا . فَصَاحَ (مَاندريك) :

« لَا تَنْهَضِي ! »

هَكَذَا اسْتَعْرَتَ عَمَلِيَّةَ الْإِحْيَاءِ بَعْضَ الْوَقْتِ . بَيْنَمَا الْبَاقُونَ
يَلْتَفِتُونَ جَوْلَنَا فِي تَوَتَرٍ يَرِاقِبُونَ مَا يَحْدُثُ ..

إِنِّهَا تَسْعَلُ .. تَفْتِيحُ .. تَنْنُ ..

مِنْ جَدِيدٍ أَصْدَرَ (مَاندريك) تَعْلِيمَاتِهِ لِلطَّبِيبِ الْبَرِيطَانِيِّ - الَّذِي
أَتَسَّى اسْمَهُ - أَنْ يَبْقَى مَعَهَا حَتَّى الصَّبَاحِ ، وَأَشَارَ لِي كَيْ نُنْصَرِفَ ..

★ ★ ★

« هَذَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ هُوَ الْخَطُورَةُ بِعَيْنِهِ ! »

كَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا قُلْتُ وَنَحْنُ فِي السَّيَّارَةِ .. كَانَ أَقْرَبَ إِلَى
انْفِجَارِ عَصْبِي لَا يَبْقَى وَلَا يَذُرُ ..

« الْمَجَازِفَةُ بِحَيَاةِ الْبَشَرِ مِنْ أَجْلِ رَوْي .. مَا قِيَمَةُ هَذَا ؟ لَنْ
يَجِيبَ عَنْ سُؤَالٍ وَاحِدٍ . كُلُّ مَنْهُمْ سَيَعُودُ لِيَتَكَلَّمَ عَنِ النِّفْقِ ، وَهُوَ
قَدْ تَكَلَّمَ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ فَمَا الْجَدْوَى ؟ مَنْ بَلَغَ مَرَحَلَةَ أَبَدٍ مِنْ هَذِهِ
الَّتِي نَعْرِفُهَا قَدْ مَاتَ ! أَيْ إِنَّكَ لَنْ تَسْمَعَ حَرْفًا إِضَافِيًّا ! »

لَمْ يَرُدْ وَرَاحَ يَتَأَمَّلُ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ الْمَظْلَمِ ..

عدت أقول بذات العصبية التي لم يعرفها عن طباعى بعد :

- « لقد كدنا نفقدها .. أعتقد أنك ستفقد واحداً من هؤلاء بسهولة . ومن أجل ماذا ؟ »

هنا نظر لى ، وقال ببرود :

- « هل يعنى هذا أنك لن تخوض التجربة ؟ »

- « لن أخوضها ولا أريد أن يخوضها أحد .. »

- « هذا ليس من حقلك .. الأمر يتعلق بالحرية الشخصية لعدد من البالغين .. »

قلت فى حزم ، وأنا أنظر خارج النافذة :

- « ليكن واضحاً أنكم تتلاعبون بالحياة البشرية إلى حد مفرج .. وهذا ما لا أقبله .. »

أشعل لفافة تبغ ونظر لى .. عيناه تلمعان فى الظلام وهو يقول :

- « هذا الذى رأيته يحدث مرة كل ثلاث مرات .. لم نعد نفقد أعصابنا من جراء هذا ... »

قلت فى حزم :

- « لا أريد أن أكون سمجًا .. لكن واجبي يقضى بأن أبلغ إدارة الوحدة عن هذا الذى رأيته .. »
كما تشاء ..

وارتجفت لفافة التبغ فى فمه .. بدا كأنه على وشك للتهاوى ..

انتظر لحظة حتى استجمع أعصابه ، ثم قال لى :

- « أنا أيضًا لا أريد أن أكون سمجًا ، لكن اسمح لى بلن لأذكرك بأنك شاركت فى تجربة كاملة .. تجربتين .. كنت تعرف ما يحدث وخبرتك الطبية تسمح لك بذلك ، وبرغم هذا شاركت .. شاركت والتزمت الصمت .. لدى الشهود على ذلك ولدى شريط فيديو يظهر لك وأنت تشارك فى التجارب ! »

- « هل هو التهديد ؟ »

- « لا اعتبره تهديدًا .. أنا فقط أعزف على نفس النغمة التى عزفتها أنت .. »

كان على حق .. على حق بشكل تام ..

وعرفت أن هذه غالبًا آخر مرة أقصد فيها هذه الاجتماعات

الرهيبية ..

لقد انتهت علاقتى بجمعية العالدين من الموت ..

كانت جلسة طويلة مع الخبير القاتونى فى (سافارى) فى مكتبه المغلق ..

كان أفريقيًا يدعى (جورج كاموهيلو) وهو رجل وقور يذكرك بموجه اللغة العربية فى مدرستك الثانوية .. نظرة صارمة وشارب رفيع أبيض وعوينات سميقة وبذلة أنيقة .. نسر قاتونى حنبلى يوحى بالثقة والعلم ..

سمع قصتى بالتفصيل وهو يعبث بالقلم الجاف الذى يصدر (تكتكة) إياه ..

بعد ما انتهيت هز رأسه فى أسى ، وقال :

- « لماذا سمحت لنفسك بالتورط فى هذا كله يا دكتور ؟ »

كنت فى ارتباك :

- « إنه الفضول أولاً .. الفضول والدهشة .. ثم تفتيق لتدرك أنك فعلاً حضرت أول تجربة وشاركت فيها .. »

قال مفكرًا :

- « هذا بسبب لك الكثير من المتاعب فعلاً .. اعتقد أن الطرد من الوحدة أمر وارد .. لا اعتقد أن عليك ذنباً قانونياً لكن الخطأ الإداري فادح ، فأنت تملك من الخبرة ما يسمح لك بتقدير خطورة هذه اللعبة .. رأيي الخاص أن تنسى الموضوع .. ابتعد عنهم .. هم سيباعدون عنك .. لو حدث خطأ سيدفعون هم ثمنه من دون توريطك .. أما لو تكلمت فليسوف يكون أول دفاع لهم هو أنك شاركت .. »

- « وماذا عن أول المتوفين ؟ سيكون هناك واحد حتماً وليسوف أكون مسئولاً عنه .. »

- « لا اعتبرك مسئولاً عن أى شيء .. »

عندما خرجت من عنده شعرت كأننى نلت صك غفران من صكوك القرون الوسطى ، عندما كان الخاطئ يذهب إلى الكنيسة الكاثوليكية ليشتري بماله صكاً يثبت أن الرب قد غفر له خطيئته ! شيء لا قيمة له لكنه يريحنى شخصياً .. يمكن أن أزعم للنفس أننى طلبت رأى من هو أكثر خبرة وكان رأيه أن أخرس ..
ساخرس ...

- 13 -

الآن يمكن القول إننى تَخَلَّيتُ عن العكازين أخيراً .. أمكننى أن أغلر الحديقة التى كانت محبسى وأنضم إلى آلة سافارى الرهيبة ..

رحب بى الجميع ، وبخاصة من كانوا سبب الحادث .. وقال لى (فاسيلى) إنه اكتشف أننى مهم إلى حد ما .. لهذا أصر على أن أحضر معه جراحة عظام يودى فيها دوراً مهماً ..

كنت قد اشتقت إلى غرفة الجراحة .. هذا الجو المعقم المتوتر أسحر .. حيث تشعر بأنك تغير بيدك أشياء ، بينما الآخرون ينتظرون أن يرضى عنهم العقار ويعمل ..

هكذا اجتزت إجراءات التعقيم ، ووقفت هناك جوار منضدة العمليات بينما الكشافات تسلط على عظمة الفخذ المهدمة لدى مريض مسن ..

طبيب التخدير الألمانى (آرتور يورجين) يراجع أجهزته وفراطيمه ، ثم يثبت القناع على وجه المريض .. يضع هو نفسه القناع على وجهه فتبرز لحيته الكثة من الجانبين مما يبطئ انطباعاً مضحكاً بأنه غوريلا تجرى جراحة ..

جواره يقف مساعده الألمانى بدوره (بيتر شىء ما) ، وهما يبدآن حديثاً سريعاً بالألمانية لا تفهم حرفاً منه ..

بينما بدأ الجراحون العمل سألت (يورجين) على سبيل
الدعابة :

- « هل هناك قانون يحتم أن يكون كل أطباء التخدير هنا ألمنا ؟ »

قال ضاحكاً من وراء قناعه السميك :

- « كنا أكثر من هذا .. لقد فقدنا (كارل) كما تعلم .. »

- « كارل ؟ »

- « نعم .. (كارل شرايدر) .. المسكين .. »

هنا قال الجراح المنهمك في شق الجرح :

- « لقد قتله الإدمان .. »

قال (يورجين) في غضب حقيقي :

- « لا تقل هذا .. لا أحد يدمن الـ DMT في رأيي .. لكي تتعاطاه
يجب أن يكون هناك من يحرسك .. من يسمونه (حارس الرحلة)
لأن أحداً لا يضمن ما قد تفعله بنفسك .. »

- « مثل عقار الهلوسة LSD .. عندما يتعاطاه أربعة يجب أن
يمنع واحد منهم عن التعاطي لمراقبة الثلاثة الآخرين .. قد يقتلون
أنفسهم أو يحدثون في قرص الشمس إلى أن يصابوا بالعمى .. »

- « هذا هو ما يحدث مع DMT .. لا أحد يتعاطاه وحده ..
 قبلون هم من يأخذونه حقناً .. أغلبهم يشمه شماً .. »

- « هل يمكن تعاطيه بالفم ؟ »

- « فقط مع جرعة من مثبطات إنزيم الـ MAO .. وإلا لن
 يحدث أى تأثير .. »

هنا تدخلت فى المحادثة :

- « من تكلم عن هذا العقار هنا ؟ ما دخله بوفاة الفقيد ؟ »

- « الطب الشرعى أثبت وجود آثار من عقار DMT فى
 لمحفن .. ومن الغريب أنه كان يحمل فى جيبه مورفيناً ، ولهذا
 نفرض الجميع أن المحقن يحوى المورفين .. »

ثم هز رأسه فى حيرة :

- « أتساءل من أين جاء بكل هذا الـ DMT ليتعاطاه ! إنه
 عقار نادر فعلاً .. »

وقاس ضغط الدم للمريض النائم ، ثم قال :

- « لا بلس .. كنا نتكلم عن العقار .. إن تأثيره غريب كذلك .. من
 يتعاطوه يحكوا قصصاً غريبة عن أطباق طائرة اختطفتهم ، وعن
 اضطران فى ظلام أسود .. نفق أسود طويل لا نهاية له ثم ينتهى
 بنور ساطع مبهج ! »

نظرت له فى دهشة ، وسألته :

- « لكن هذا هو بالضبط ما يقوله من يمرون بالـ NDE ..
تجربة الدنو من الموت .. »

- « بالضبط .. لهذا يرى علماء كثيرون أن تجربة الدنو من
الموت كيميائية فى الأصل ولا علاقة لها بالعالم الآخر .. »

★ ★ ★

مكتبة وحدة سافارى هنا فقيرة كما وجدتتها فى أية وحدة
أخرى ، لكنى لم أكن أبحث عن معلومات متحلقة .. أريد قشرة
تضىء لى طريقى .. ومن الممكن جداً أن تجد القشرة هنا ..

كنت طيلة حياتى أمقت علم الأدوية .. أعتبره ثمرة الزواج غير
المقدس بين علمى وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية .. نتيجة هذا
الزواج غير المقدس كائن شيطانى شرير يمكن أن يحيل حياتك
جحيماً ..

هكذا بحثت عن عقار الـ DMT الذى أعترف بأننى لا أعرف
سوى اسمه ..

وجدت معلومات غريبة فعلاً :

يعتبر الدكتور ريك شتراسمان Strassman حجة عالمية فى
عقار الـ DMT وقد وجد أنه ينبعث من الجسم الصنوبرى فى
السخ بكميات هائلة لحظة الوفاة .. هذا يؤدى إلى هلاوس محببة
تجعل لحظة الموت محتملة ..

مادة DMT هي اختصار للفظة Dimethyltryptamine وهو كما
يوحى الاسم من مشتقات التربتامين .. المادة التي نقابلها كلما
نعلق الأمر بالتوصيل داخل المخ ..

تم تخليقه معملياً للمرة الأولى عام 1931 إلا أنه موجود في
نباتات كثيرة .. إنهم يعرفونه في أمريكا الجنوبية ويتعاطون
مشروباً يذهب العقل اسمه (أياخواسكا ayahuasca) يحوى
كمية هائلة من هذه المادة ..

تعاطى هذه المادة بالشم أو الحقن يسبب هلاوس لا تدوم أكثر
من نصف ساعة .. تبدأ الهلاوس السمعية والبصرية وتغيرات
المزاج . لهذا يعتبرون تعاطى الياخواسكا تجربة صوفية في
البرازيل ، خاصة إذا تم تعاطيه بالفم لأنه يمنحك رحلة غريبة
مدتها ثلاث ساعات كاملة .. تصور أن هذا الـ DMT مصدر عدة
ليان تعارسها القبائل في البرازيل ، وبعضها يمزج الشامانية
بالمسيحية بتعاطى الـ DMT في خليط عجيب ..

من جيد يظهر د . شتراسمان ليعلن أن ذات المشاهد المبهرة
التي يراها من يمرون بتجربة الـ NDE يمكن أن تحدثها صناعياً
لوقمنا بحقن الـ DMT ..

كنت أنا أرتجف من فرط الانفعال ..

هناك طبيب نفسي يفتش بنهم عن تجارب الـ NDE ويجربها
بلا قلق ، وهناك طبيب ألماني شاب يجدونه ميتا ومعه محقن به
آثار تلك المادة التي تسبب ما يشبه الـ NDE ..

هل يمكن الربط بين الحادثتين ؟

أم أنها صدفة ؟ هذه الصدفة لقمة ضخمة لا أستطيع ابتلاعها
بحق .. أن يكون هناك اثنان يمارسان تجارب الدنو من الموت
في وحدة سافاري ..

هل قتل (شرايدر) نفسه أم هناك من قتله ؟ بمعنى آخر : هل
مات نتيجة خطئه هو أم نتيجة خطأ شخص آخر ؟

شخص تخلص من الجثة والمسئولية بهذه الطريقة ؟

إن عقلى يوشك على الانفجار ..

- 14 -

فى اليوم التالى قرأت كل ما وقع تحت يدى عن تجربة الدنو من الموت ..

المشكلة أن ترسانة العقاقير التى تحدث تأثيرا مماثلاً كبيرة جداً .. كل القبائل البدائية عرفت هذه العقاقير واستعملتها لأغراض دينية خاصة بها .. التحليق فى الفضاء والنشوة والانفصال عن الجسد .. ثم النور الساطع فى نهاية النفق ..

مثلاً عقار الكيتامين Ketamine هو العقار الأكثر أهمية فى إحداث هذه التجارب .. هناك طبيب اسمه (ياتسن Jansen) وجد تشابهاً يدير الرعوس بين تأثير هذا العقار وتجربة الدنو من الموت .. السبب هو أن الكيتامين ينشط مادة معينة فى المخ ، وهذه المادة هى ذاتها التى يفرزها المخ عندما يفتقر إلى الأكسجين .. أى أن الحقن بالكيتامين ونقص الأكسجين فى المخ كلاهما يؤدى لنفس النتيجة .. تجربة الدنو من الموت ..

هناك عالم اسمه (بلاك مور) قال إن سبب هذا الشعور العارم بالراحة والسلام هو إفراز مادة (الاندورفين) فى المخ .. هذه لدغة مخدرة وتسبب حالة عامة من الانبساط .. والمخ البشرى

يحتفظ بها للحظات النهاية الأليمة كي يوفر على صاحبه عذاباً لا نفع منه .. لقد خلق الله للمخ البشرى القدرة على تخدير نفسه في لحظات الألم الجامحة ، وعقار الاندورفين خير دليل على ذلك .. الفار بين أنياب القُط لا يشعر بالألم الذى نتصوره لأن عقار الاندورفين يفرز بإفراط ليُجعل النهاية محتملة .. هذه لحظة لا يصير الألم فيها مفيداً .. الجسم يحافظ على وجود الألم لأنه ينفقنا من خطر الحرق والظعن ، لكن ما قيمة الألم عندما لا يكون هناك مفر ؟ الاندورفينات تجعل المريض يرى ضوءاً جميلاً بدلاً من أن يرى جسده الممزق والمُسعفين المحيطين به .. وهناك من قال إن الضوء الذى يراه المريض هو ضوء كشافات غرفة الجراحة ..

عقار الهلوسة LSD نفسه سبب هلاوس مشابهة تماماً ..

اعتاد المسعفون أن يصف هؤلاء الذين يلفظون أنفاسهم قبل الموت رؤية نفق وضوء ساطع ، وقد اقترح العلم الحديث أن سبب هذا الضوء الساطع نقص الأكسجين الوارد للدماغ مما يؤذى العصب البصرى .. قيل كذلك إن هذا الضوء ناجم عن (الفوسفينات phosphenes) وهى شحنات كهربية فى أطراف أعصاب العين تترافق مع نقص الأكسجين .. هناك من قالوا إن السبب هو إصابة الفص الصدغى الأيمن من المخ ، وقد استطاع

(مايكل برزنجر) طبيب الأعصاب في (أونتاريو) أن يحدث ذات التأثير في المتطوعين عن طريق تنبيه الفص الصدغي كهربياً .. ويقول إنه أحدث خبرات صوفية وخبرات الخروج من الجسد .. باختصار استطاع صناعياً أن يحدث كل أعراض هؤلاء الذين ماتوا وعادوا ، والذين خطفتهم الكائنات الفضائية .

السؤال هو : إذا كانت هذه مجرد ظاهرة كيميائية فلماذا لم يرها كل من عانى توقف القلب للحظات ؟ وإذا كان هؤلاء فعلاً يقتربون من العالم الآخر ، فلماذا لا يمر الجميع بذات الظروف ؟

لقد بدأت قناعتي تهتز ..

بالفعل اعتقد أن ما حدث لى كان تجربة كيميائية لعبت بى فيها عثرات الموصلات فى مخى ، تلك التى شعرت بأنها محرومة من الأكسجين ..

هذا لا يتعارض مع الدين فى شىء .. تجربة الدنو من الموت لا علاقة لها بالعالم الآخر والثواب والعقاب .. وكما قلت سابقاً : سطح الجيران موجود سواء كان بوسعك أن تزحف فوق سطح دارك لتلقى نظرة عليه أم لا .. فشك فى استراق نظرة لا يدل على شىء ..

لكن ما الذى يحاول (ماندريك) إثباته ؟

كنت جالساً فى الكافيتيريا مع د. (بورجين) طبيب التخدير
الألمانى ، عندما قال لى عرضاً إن (شرايدر) كان صديقاً مخلصاً
لـ (ماندريك) ..

ـ « أنت تعرف أن الشعراء ينسجمون مع الأطباء النفسيين ..
لا أحاول بهذا أن ألمح إلى أن الشعراء مجانين لو كنت قد فهمت
هذا ! »

كنت مهتماً بهذه النقطة ، فعدت أسأله :

ـ « هل كنا يقضيان وقتاً طويلاً معاً ؟ »

ـ « نعم .. واعتقد أن وفاة (شرايدر) قد أحدثت شرخاً ما فى
نفسية (ماندريك) .. »

رحت أفكر فى هذا الكلام ..

صديقان .. كلاهما مهتم بالعبور إلى الحافة ..

ما هو الرابط ؟

يجب أن أجرى بعض الاتصالات ..

★ ★ ★

وكان (مالدريك) جالساً في مكتبه يطالع بعض الأوراق عندما رفع رأسه ليرأى ..

لبسم ابتسامة خافتة ودعأتى إلى الجلوس ..

كان المكتب أنيقاً فى بساطة ، وهناك جهاز كاسيت صغير يذيع موسيقا كلاسيية حالمة .. رائحة التبغ تفعم الجو توشك على إزهاق روحك .. على الجدران لوحات بسيطة ذات ذوق عال ، لكن خلفه على الجدار صورة عليها ستار أخضر .. كل حياة هذا لرجل ستائر خضر .. لكن لماذا يحرص إنسان على تعليق لوحة لا يريد أن يراها ؟ يذكرنى الأمر بصورة (دوريان جراى) التى كان يفتيها كى لا يرى أاثامه منطبعة على ملامحها ..

لاحظ نظراتى إلى اللوحة ، فقال باسمًا :

- « هذه صورة أمى .. منذ وفاتها لم أستطع عمل سلام مع نلس ، أو عقد معاهدة مع ذكراها . لكنى أنتظر هذه اللحظة ، وهذا هو السبب فى أننى علقتها . يوماً ما سوف أزيح الستار وأنظر فى عينيها وأقول : وداعاً يا أماه ! »

أمام نظراتى غير الفاهمة حكى لى قصته مع أمه .. ليست للنصة المفصكة التى سمعتها أنت منذ قليل لكنه حكى ملخصاً

حذف منه أهم الأجزاء .. أى أن القصة لم تعد R وإنما صارت PG-13 .. لم يحك مكالماتها الأخيرة وهى تموت وكيف تجاهلها هو .. لم يحك العقدة التى طاردها ولا كيف صار فى أمن الحاجة إلى أن يسمع أمه تسامحه .. لكنى قدرت أن هذه المرأة فى الصورة أحدثت فى حياته أثراً لا يمكن وصفه ..

قال لى ، وهو يصب لنفسه شيئاً فى كأس صغيرة :

- « ربما لهذا أريد أن أفهم ، أن أقرب أكثر .. »

سألته بصراحة :

- « هل أنت متدين يا د. (ماتريك) ؟ »

- « ليس كما تفهم أنت التدين .. أنا أو من بعالم آخر وحياة بعد الموت . فيما عدا هذا لا أدرى .. »

ثم نظر لى طويلاً ، وقال :

- « لماذا لم تبلغ الإدارة ؟ »

- « لأننى متورط .. ظننت الأمر واضحاً .. »

- « فهمى للبشر هو أن هذا ليس سبباً كافياً بالنسبة لك .. »

قلت ضاحكاً :

- « بالعكس .. أنا راغب فعلاً في أن أكون معك في الجلسة

القادمة .. إنه الفضول البشري .. »

- « هذا مثير بحق .. »

اضفت ، وأنا أنهض :

- « ليس هذا فحسب .. ما أريده هو أن أكون أنا موضوع

التجربة القادمة ! »

- 15 -

مساء الخميس اتجهت إلى البناية إياها فى (ديربان) ..

أجتاز مدخل الحديقة بينما السيارة اللاندروفر التى أرسلها لى (ماتريك) تدور عائدة .. إن (ماتريك) يحرص على ألا يركب معى قدر الإمكان كى لا يربط أحد بيننا ..

أصعد إلى الشقة المعنية ، فأجد فى الداخل الهندى والبريطانى .. لم يأت الآخرون بعد .. جلست على مقعد وبعد دقائق جاءت الصحفية (مارى) حاملة حقيبة جلدية كبيرة ، فحييتها :

- « كيف حالك ؟ »

قالت ضاحكة ، وهى تتخذ مقعدًا :

- « لا أدرى .. كنت فى عالم آخر وقتها .. قيل لى إن قلبى كان عنيدًا . هذا يحدث كثيرًا جدًا .. لكنى للأسف لم أر شيئًا .. كل هذا الجهد كان من دون طائل .. »

- « حقًا ؟ ظلام دامس ولا شيء سواه ؟ »

تحسست ظهرها ، وقالت :

- « نعم .. للأسف .. وأنت تعرف الباقي .. »

قال الهندي حارس المصرف الذي عرفت أن اسمه (أكبر موندهارات) :

- « أنا مررت بحالة من عناد القلب هذه لكنى رأيت كل شيء ..
لقربت جداً من الحقيقة وفهمت .. »

- « فهمت أى شيء ؟ »

كان يتحدث بتلك الطريقة الهندية التى تضخم حرف الراء ،
وتلك الهالات السود تحت عينيه تدل بما لا يقبل الشك على
هنديته .. قال وهو يحك شاربه :

- « رأيت (شيفا) و (فشنو) .. كانوا ينتظروننى : رأيت (كالى)
لمفلسة .. كانوا جميعاً ينتظروننى وهم يرقصون ابتهاجاً بقدومى ..
كل الآلهة كانت هناك .. »

- « أنت رأيت (شيفا) شخصياً ؟ ! »

- « نعم .. »

- « هذا ليس سهلاً .. »

- « هذا شرف عظيم .. لا يناله إلا القليل .. »

هكذا رحلت أخلق فى الأرض كى لا يرى تعبيرات وجهى ...
لهندوسى يرى (شيفا) و (كالى) ، بينما البوذى يرى بوذا ..

لو كانت تجربة الدنو من الموت حقيقية فمعنى هذا أن هؤلاء على حق .. إذن هذا دليل آخر على أن ما يراه المرء ليس سوى بقايا من عقله الباطن .. كل واحد يرى مقدرات دينه الخاص ويعتقد أنه وصل العالم الآخر ..

تجربة الدنو من الموت ليست سوى ممارسة أخرى للأحلام ، وعلى الأرجح يمكن أن تفسر بالقواعد الفرويدية العادية .. بعد دقائق جاء الباقيون وجاء (ماتريك) ..

قال لنا ، وهو يقف بقامته الفارعة بين المقاعد :

- « يسرنا أن يعود لنا د . عبد العظيم بعد ما تبديل فكره بعض الوقت .. وهو موافق على أن يجرى التجربة التالية .. »
ثم أشار لى إشارة مهذبة راقية كي أتجه إلى ما وراء الستار الأخضر ..

هكذا نزلت قميصى واتجهت مرتبكا إلى سرير الكشف فجلست عليه ..

ظهر د . (ستيوارت) البريطانى باسما ، وطلب منى أن اكشف ذراعى .. هنا أخرجت محقنا من جيبى ومددت يدى إلى زجاجة بنتوثال الصوديوم الموضوعه جوار سرير الكشف ، وقلت :

- « سوف أعد أنا لكم حقنة التخدير .. »
- « لا داعي لأن تتعب نفسك .. نحن سنقوم بكل شيء .. »
- « قلت إننى سأقوم بإعدادها .. هذه ليست مشكلة .. »
- « ولا هى مشكلة بالنسبة لنا .. »
- « أنا مصر .. »
- نظر لى فى حيرة ثم التفت إلى د. (ماتريك) الذى كان خارج
السنار مع الآخرين ..
- « د. (ماتريك) .. هلا جئت من فضلك ؟ »
- جاء (ماتريك) ليجدنى جالساً على الفراش ممسكاً بالمحقن
اللىء بالسائل .. قال لى فى حيرة :
- « ما المشكلة ؟ »
- « المشكلة أننى مصرٌّ على أن أعد البنتوئال للنفسى .. لن
أترك أحداً يحققنى بشيء ما لم أعرف ما تحتويه الحقنة .. من
لنفهم أننى أعرف أكثر مما يجب بالنسبة لك .. »
- ساعت فى وجهه ضحكة دافئة موحية بالثقة فى النفس ، وقال :

- « د. (عبد العظيم) .. أنت على وشك أن تتلقى صدمة كهربية وعلى وشك أن يتوقف قلبك .. لو نم تثق بنا حتى هذا الحد فمئى تثق ؟ لو أردنا الخلاص منك فأمامنا ألف فرصة ! »

- « آسف .. إما هذه الحقنة أو لا .. »

هنا جاء صوت من الخلف يقول بلكنة ألمانية واضحة :

- « لماذا لا تريحه ؟ ليس ما يطلبه عسيرا .. »

هز الرجل رأسه فى عدم اقتناع ، وثبت لى القناة الوريدية ، ثم أمرنى بأن أرقد على ظهري وأتنفس بعمق .. فى الوقت الذى التفت فيه الجميع من حولى فى فضول كالعادة ..

- « الآن يا دكتور .. أريدك أن تعد من واحد إلى عشرة .. »

واحد ..

اثنان ..

ثلاثة ..

أرب ..

- 16 -

هأنذا أبدأ الرحلة ..

من جديد أغمض عيني فيسود الظلام .

أنا ساحر صغير . فليات الظلام .. يتلاشى الواقفون من حولي ..

أشعر بخفة غير مسبقة .. صحيح أن الظلام دامس لكنى
أرى النور المعتاد فى نهاية اللفق ..

هذه المرة أعرف أنه ليس نوراً بالضبط . إنه المصباح يتوهج
فخترق جفنى المغمضين ..

أرى شعيرات الدم داخل الجفنين . أحسها ..

السائل البارد يتسرب فى عروقى ..

حتى هذا أشعر به ..

ربما هى الحساسية المفرطة ، وربما هى الهستيريا ..

اعتدت أن أعتبر النساء اللاتى يتحدثن عن إحساسهن بأفعالهن
هستيريات .. من العلامات الأولى لسرطان الشرج أن يدرك المريض
أن عنده شرجاً .. هكذا علمونا ..

الدكتورة (صافيناز) أستاذ الطب الشرعي تتكلم في نقطة ما من الزمكان (الزمكان = الزمان والمكان) .. تنظر لنا نظريتها الحازمة وشعرها الأشيب يتألق في ضوء النيون بقاعة الدرس .. تقول :

- « أكثر الوفيات والإصابات في حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التمس الذي يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً في السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

صوت أزيز يتعالى لكنه ليس كريهاً .. يدغدغ الأذن حقاً فتطلب المزيد منه .. من أين يأتي ؟

أنا أقرب من هذا النور الساطع ..

بعد لحظات أعبره ..

بعد لحظات لن تكون هناك أسرار ..

سوف أعرف كل شيء ..

Plus vite .. Plus vite ..

من البطيء إلى السريع ..

لارجيتو ..

أداجيو ..

أندانتى ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

ثم شعرت بالقرص على صدرى ، وسمعت الصوت يهتف :

.. إخلاء !

وتلقيت الضربة القوية التى توقعتها بين لوحى الكتف

فانتفضت ..

صرخت !

- 17 -

أمام أنظار الجميع نهضت صارخاً :

- « آى ! »

ثم وثبتت من على سرير الكشف .. الحقيقة أننى استقرخيت لدرجة أننى أوشكت على أن أنام وأحلم ، لكن الضربة أعادتنى إلى صوابى ..

أحدثت على سرير الكشف وبحثت عن الشيء الذى ضربنى .. ها هو ذا ! هناك رفاص مثبت تحت الظهر وعندما يتحرك يقفز جزء من حشية السرير لأعلى ليضرب الراقد على الفراش بين لوحى كتفيه .. ضربة قوية فعلاً ..

عندما اتصلت بـ (ماري) أطمئن على صحتها بعد تلك التجربة ، قالت إنها بخير فيما عدا تلك الكدمة فى ظهرها ..

سألتنى عما حدث لها عندما فقدت الرشد .. هل هناك من لكمها على ظهرها ؟

طبعاً لا ..

هكذا طلبت لقاءها فى وحدة سافارى وفحصت ظهرها لأجد ألين كدمة حديثة يمكن تخيلها .. كدمة على شكل قرص مستدير هنالك بين لوحى الكتف بالضبط ..

لم أفهم سبب ذلك ولا هي فهمت ..

اتصلت بالأمماتى (شتاينبرج) وسألته عما إذا كانت هناك كدمة فى ظهره ، فقال إنها تحدث فى كل مرة وإنه لا يرى لها أهمية ما .. ربما هى من ضروريات تجربة الاقتراب من الموت ..

لم يكن عندى إلا تفسير واحد .. جهاز نزع الاستقطاب وهمى ولا يصدر أية كهرباء .. فقط يصدر صوتاً .. يجب أن ينتفض الجسد .. لذا هناك زنبرك فى سرير الكشف يحرك ذلك الجزء الذى يجعل الجسد ينتفض مع الصوت .. هكذا تشعر أنك ترى صدمة كهربية تخرق جسد المريض ..

هكذا اتفقت مع مارى على هذا السيناريو ..

كنت أريد أن أرى ما يحدث بالضبط .. أفهم ..

استعددت بذلك المحقن .. عندما غادر (ستوارت) الغرفة ليبلغ (ماتدريك) قمت بملء المحقن بمحلول الملح .. لا شيء سواه .. هكذا عرفت أننى سلبقى متيقظاً أثناء التجربة .. وفى الوقت ذاته نظرت خلف المراقب فتأكدت من أننى على حق .. لا يوجد خطر على حياتى بتاتاً .. هم يعتقدون أننى تحت تأثير البنثوتال بينما أنا لست تحت تأثير أى شيء على الإطلاق ..

الآن تلقيت الضربة الخادعة التي جعلت الجميع يعتقد أنني
تلقيت صدمة كهربية ..

هكذا نهضت لأكشف الحقيقة ..

قلت للواقفين المندهشين وأنا أشير إلى القرص الزنبركي
المثبت في سرير الكشف :

- « هذا هو الدليل الأول .. الجسد ينتفض ليس بسبب الكهرباء
ولكن لأنه يتلقى ضربة قوية بين لوحى الكتف .. »

ثم انحلت لأكشف المقرش الذى يغطى أسفل المنضدة التى
عليها وضع المرقاب ..

- « الدليل الثانى .. »

سألنى الألمانى (شتاينبرج) فى دهشة :

- « ما هذا ؟ »

قلت ، وأنا أشير إلى جهاز الكمبيوتر الموضوع هناك :

- « هذا الجهاز يعرض فيلم فيديو يرسم ضربات قلب زالفة
على شاشة المرقاب .. كل شىء مرسوم سلفاً .. كيف ينبض
القلب وكيف يتوقف ثم يعود للنض .. فقط يبرمج الطبيب
حركاتهما على هذا الفيلم .. قبل أن تستحيل الضربات على

الشاشة خطأ مسطحاً يضعان الأقطاب الزائفة ويصدران صيحة الإخلاء .. ثم يدوى صوت (يوم) .. وفى اللحظة ذاتها يثب الرفاص ليقفز الجسد لأعلى .. كل شيء مبرمج مسبقاً حتى الحالات التى يرفض فيها القلب الاستجابة .. فقط هو حقن ماري فى قلبها بشيء ما كى تزداد الخدعة إحكاماً ! »

ثم نظرت إلى د. (ماندريك) الذى وقف صامتاً كأن الكلام غير موجه له ، وقلت :

- « لهذا منعنى من المشاركة فى إنعاش (ماري) . كانت تكفى لمسة واحدة منى لمعصمها كى أدرك أن القلب ينبض وليس متوقفاً على الإطلاق ! »

ثم أشرت إلى جهاز نازع الاستقطاب :

- « الدليل الثالث سوف نتأكد منه بسهولة .. هذا الجهاز لا يعمل على الإطلاق .. »

هنا صاح الهندى (أكبر) فى عصبية :

- « وما جدوى هذا ؟ أى شيء يجنيه من الخداع ؟ »

نظرت إلى (ماندريك) الذى وقف فى صمت ينظر لنا بدوره ، وقلت :

- « هذا هو السؤال .. رهاتى هو أن هذا الطبيب لا يقوم بإيقاف
القلوب على الإطلاق ، وإنما هو يحقن المرضى بعقار DMT قبل
بدء التجربة ليضعهم فى حالة من الهلوسة .. فترة قصيرة جداً
يعرفها هو ويعرف متى يفيق المريض منها ، وهو ما تحاشيه
كما رأيتم .. أما لماذا لا يعلن ذلك صراحة فأمر أتركه له ! »

★ ★ ★

- 18 -

الآن يحيط الجميع بـ (ماتريك) ..

لا أحد يحب أن يُخدع .. لا أحد يحب أن يكون أحمق .. هكذا بدا الغضب واضحاً في العيون ، أما أجمل ما في الأمر فهو أن (ستيوارت) البريطاني كان يقف مع الغاضبين .. أنت تعرف كما أعرف أنه لا يمكن إلا أن يكون متواطئاً في هذه اللعبة ..

كان (ماتريك) يتراجع بظهره لكنه لم يخرج يديه من جيبه .. يتراجع وهو يقول في ثقة :

- « هذا خيال ! هل يمكن أن يدعى إنسان أنه يوقف القلوب بينما هو لا يوقفها ؟ يتظاهر بجريمة بينما هو لم يرتكبها ؟ والأدهى أنكم غاضبون لأن قلوبكم لم تتوقف ! »

قال (جيرار) الفرنسي وهو يكور قبضته :

- « نحن غاضبون لأن هناك من سخر منا .. سخر من جزء عزيز من ذكرياتنا .. لقد جعلتنا حمقى .. »

وقال الألماني :

- « كل هذه التمثيلية . ما هدفها بالضبط ؟ »

هنا كان (ماندريك) قد خرج إلى القاعة التي كنا ننتظر فيها ..
لقد تغير منظرها كثيراً ..

على الجدران كانت هناك عشرات بل مئات .. ربما آلاف ..
بل ملايين .. بل بلايين .. بلايين الصور لأمه .. الرقيقة العجوز
التي تسيطر على كل شيء من تفاصيل حياته ..

الظفرة الثابتة الحنون . الابتسامة الواهنة التي كانت على
شفتيها يوم رآته بدخن ..

أطلق سبة أمريكية جداً ، وهتف :

- « من الذي ؟ »

من الذي ؟

من الذي ؟

أنا التقطت هذه الصورة بالكاميرا الرقمية التي أحملها ..
تسللت لمكتب (ماندريك) وأزحت الستار الأخضر والتقطت
الصورة وطبعتها .. وصنعت منها عشرات النسخ بآلة تصوير
المستندات في سافاري ..

لقد قامت (ماري) - التي اتفقت معي في الشكوك - بعمل متقن
عندما دخلنا وراء الستار .. الجميع توارى فنهضت لتلصق الصور

على كل الجدران مستعملة أنبوباً من اللاصق .. انتهت بسرعة
فلحقت بنا بينما (ماندريك) يحاول إفاقتي ..

(ماندريك) يتراجع في زعر وهو يرمق الجدران ..

أمه في كل مكان .. أمه تراقبه .. تلومه ..

« هذه صورة أمي .. منذ وفاتها لم أستطع عمل سلام مع
نفسي ، أو عقد معاهدة مع ذكراها . لكنني أنتظر هذه اللحظة ،
وهذا هو السبب في أنني علقته . يوماً ما سوف أزيح الستار
وأُنظر في عينيها وأقول : وداغ يا أمه ! »

صحت في (ماندريك) وأنا ألبس قميصي ، شاعراً بأن ارتداء
الثياب يمنح موقفي قوة .. لا أحد يكون أقوى وهو عاري الجذع
إلا بروس لي ..

- « هل تريد أن أعطيك استنتاجاً ؟ أنت جربت عملية توقف
القلب هذه مع (شرايدر) .. أجريت عليه التجربة في غرفته
فكانت النتيجة أنه مات .. كانت لعبة خطيرة جداً .. هكذا جررته
إلى المصعد وألقيته هناك وتركت جواره محققاً لتوحي بأنه
تعاطى جرعة زائدة من المخدر .. هكذا أفلتت من المسؤولية
والتشريح لم يبرهن على شيء .. بعد هذا قررت ألا تجرب هذه

التجربة الخطرة ثانية .. سوف تجرب عقار الـ DMT على هؤلاء لتحدث تأثيرا مشابها للدنو من الموت .. لكنك كنت تعرف ان أحدا لن يقبل التجربة .. لا أحد يعرض نفسه للإدمان من أجل تجربة ، دعك من أنهم قد يقبلون فكرة توقف القلب والمغامرة بالدنو من الجانب الآخر ، لكن الـ DMT يشعرهم بأن القصة كلها خدعة كيميائية .. هكذا رحت تجرى تجاربك .. هؤلاء يحسبون أنهم يمرون بتجربة دنو من الموت ، بينما أنت في الحقيقة تحققهم بعقار الـ DMT لتري إن كان سيقود إلى شيء .. هل سيرون أحبائهم أم لا ؟ »

صاح ، وهو لا يرفع عينيه عن صور أمه :

« كان لابد أن أراها ثانية ! فشلت في كل شيء ! حتى عقار الـ DMT اللعين لم يحدث أى تأثير معي .. أردت أن أحقن متطوعين وأن أحقنهم بجرعات عالية .. هكذا أعرف الجرعة الصحيحة المناسبة لاستحضار من ماتوا .. »

« لن يكون من ماتوا هم من تراهم وقتها هم بل هلاوس المخ .. »

« أنت لا تفهم شيئا .. إن الـ DMT ليس مجرد عقار .. إنه يجعل النفوس تشف وتتصل بالعالم الأثيرى .. »

- « كذا يقولون عن المخدرات جميعاً ! »

- « أنت لا تفهم .. (شرايدر) فى التجربة الأولى رأى دسنة من أقاربه الموتى .. لكنه مات فى التجربة الثانية .. جررته إلى المصعد وتخلصت منه .. »

هنا نظرت إلى الواقفين ، وقلت :

- « أنتم جميعاً سمعتم ما قال .. سوف تشهدون بذلك .. »
لكنهم لم ينظروا لى ..

كانوا ينظرون إلى الطبيب النفسانى العملاق الذى تكوم على الأرض فى وضع جنينى وراح يبكى كطفل :

- « سامحيني .. ماما .. أرجوك أن تسامحيني ! ماما ! »

لن أصدع رأسك بالتحقيقات والضوضاء التى تلت هذه الأمسية ..

لقد عرفوا كل شىء .. وكان (ستيوارت) البريطانى يعرف القصة كلها وهو على شىء من الخبال بالمناسبة مما جعله يتحمس لهذه التجارب ..

الآن ذهب (ماتدريك) إلى مكان تعرفه جيداً .. لقد انهار توازنه النفسى الهش تماماً مع هذه التجربة ، خاصة بعد ما رأى صور أمه تلاحقه كالضمير ..

بالتفتيش فى شقيقه وجد رجال الشرطة كمية لا بأس بها من
عقار DMT وعقار الكيتامين .. كان يجرب كل شىء ويريد
الوصول للطريقة المثلى لرؤية من ماتوا . رؤية أمه بالذات ..
الآن انتهت مهمتى هنا وحان وقت العودة إلى الكاميرون ..

وداعا يا جنوب أفريقيا . وداعا يا ناتال ..

لن أشتاق لكم أبدا !

كنت أتمنى أن أعرف ما سيفعلونه مع (ماتريك) فى المصححة ،
وما سوف تفضى إليه محاكمة (ستيوارت) ..

لكن هذه أمور لا تعنينا هنا فى سافارى .

د . علاء عبد العظيم

من قرب ديربان

★ ★ ★

تمت بحمد الله

المصادر:

● هبة حسين : أغرب من الخيال . كتاب اليوم . الطبعة الثالثة . نوفمبر 1994 .

● عدد من مواقع الإنترنت .

● Theresa Cheung: The Element Encyclopedia of the psychic world. Harper Element. London.1 st ed. 2006

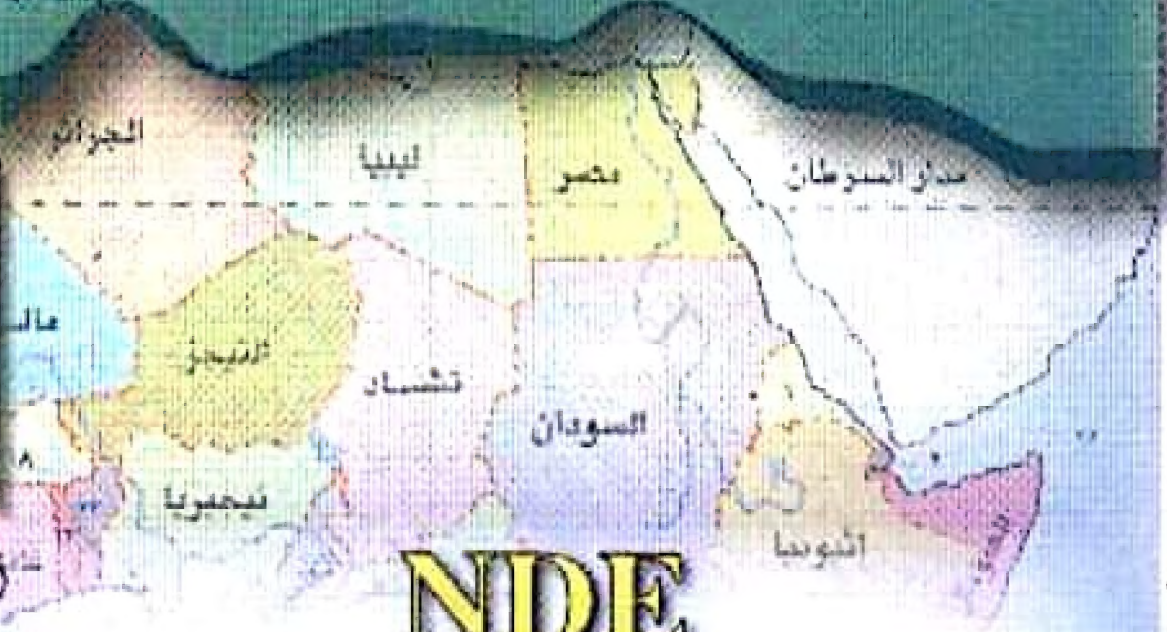
سافاري

مغامرات طبيب شاب يعاهد
لكي يفلح حياة ولكي يفلح ضيعة

روايات مصرية الخيب



د. محمد عثمان التوفيق



NDE

أنت تقترب من النور .. من فتحة النفق .. سوف تعبر ..
شعور بالنشوة يغمرك ، لكنه كذلك توتر لذيذ .. درجة
معينة محببة من الخوف .. لكنك سوف تعبر .. وسوف
ترى ما ينتظرك هناك .. تعرف مصدر هذا الضوء وسره ..
ربما تذوب فيه للأبد .. ربما لهذا جئت إلى العالم .. ربما
لهذا أنت موجود .. كي تذوب فيه فلا يصير لك وجود ..

العدد القادم

عن الطيور نحكي



المؤسسة
العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

راحت إلى هناك

التمن في مصر 300

وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والخليج



www.dvd4arab.com